غادة السمّان

الأعمال غير الكاملة

٤

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان

بيروت - ص. ب. ١١٨٣٣١
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى : تموز (يوليو) ١٩٧٩
الطبعة الثانية : كانون الثاني (يناير) ١٩٨١
الطبعة الثالثة : كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥
الطبعة الرابعة : كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٨

مصارحـــة

١ ـــ هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهمه ذلك .

كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الأولى ١٩٧٤ ـــ ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن أصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة أكثرها .

واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها (حرب ما) ثانية أشعر أن من حقي الحيلولة دون احتراق أوراقي مرة أخرى ... ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً مني بأهميتها ـــ وهي قد تكون أو لا تكون كذلك ـــ ولكن بالدرجة الأولى لأنني لا أريد لها أن تحترق ! .. فهي جزء من ماضيّ الكتابي ، وهي ككل ماض لا يمكن إلغاؤه كما انه لا يمكن تبنّيه كلية .. وبطبعها ، سيكون لي في بيت كل قارىء عربي من قرائي ملجأ يحمي حروفي من الإبادة .. وهو احساس جميل وحميم يغمرني ويسعدني .

٢ ـــ ليس هنالك فنان يرضى عن أعماله القديمة ـــ إلا فيما ندر ـــ ولست من هذه الندرة . أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمني الذي كتبت فيه . لحظة كتبتها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعي أفضل مما فعلت .

٣ ـــ أعتقد أن العمل الفني كالخطيئة ، لا يمكن محو إثمها بعد ارتكابها ، وكالرصاصة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإنني لم أبدل شيئاً يذكر . فالكلمة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين وإلى الأبد . هذا بالإضافة إلى أنني قد لا أرضى في غدي عما أرضى عنه في يومي ، وهذا معناه ـــ لو أعدت باستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه ـــ أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدة لكتبي (!)

وهو أمر مستحيل وخارج عن طاقة البشر .

٤ — اللمسات القليلة التي أدخلتها في بعض السطور لم تكن تحويراً في جوهرها بقدر ما كانت محاولة لمزيد من الاقتراب من جوهرها الأصلي .

٥ — « الأعمال غير الكاملة » هو الاسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الأعمال الكاملة » المتعارف عليها .

فهذه الأعمال ليست « كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري — مهما كان مبدعاً — هذا أولاً .

وهي ليست « كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبته بل كل حرف أتصور أنه يستحق حداً أدنى من الحرص — أي مختارات من أعمالي — (ما عدا أعمالي القصصية التي ضمها الجزء الأول من هذه السلسلة ، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على أعمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن — كما أتصور — في كتابة القصة) .

ثم أن هذه السلسلة هي بحق « الأعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً إلى كتابة الأفضل ، ويخيل إليّ أن عبارة « الأعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموت ، وذلك حظ لم يباركني بعد ! ...

غادة السمان

الساعة ٥,٣٧ فجر ٧ — ٩ — ٧٨

الإهداء

إلى الذئاب المتوحدة مثلي . .
التي جاعت يوماً إلى الحنان ،
فالتهمت ذاكرتها .

غادة

عن مدينتي الام ..

أعتقد أن القضية في النهاية هي قضية حب ؛
كلما ازددت حباً لذكرى ما ، ازدادت سطوة
تلك الذكرى ... وغرابتها ...

— فلاديمير نابوكوف —

لقد لقنتها الحياة درساً لا ينسى ، وهكذا
حينما يُغلق باب ما في قلبها ، فإنها تسارع إلى
فتح باب آخر ! ..

— ميرتل ريد —

٧ /١١/ ١٩٧٣

هوامش على فاترة دمشقية

هذا الصباح وجدت رسالة في المجلة البيروتية التي أعمل فيها بانتظاري . «ظرفها» مصفر كأنما أحرقتها الشمس وهي تركض سنوات بحثاً عني من قارة إلى أخرى، وقد طمس المطر ختمها العتيق فلم أتبين للوهلة الأولى كلماته .. اسم المرسل غير موجود ، وثمة طابعان دمشقيان يعلنان فقط عن هويتها .

رسالة من دمشق !

عشرة أعوام وأنا أنتظر أن تكتب لي أمي العظيمة دمشق ... عشرة أعوام من الصمت حتى ظننتها نسيتني !

ترى من وقعها لي ؟ قاسيون ؟ الغوطة ؟ « ساحة النجمة » حيث تربيت وكبرت وحزمت حقائبي ورحلت ؟ .. وإن كتبت لي دمشق ، فماذا تقول لي ؟ بحرقة تذكرت ليالي وليالي وأنا أنتظر رسالة دمشق إليّ ... في كل مدينة تشردت فيها ، انتظرت أن يأتيني هذا الظرف المحروق بالشمس والريح ، المغسول بالمطر والثلج ، اللاهث خلفي ... أذكر جيداً أنني سقطت في فخ الغربة في لندن عام ١٩٦٧ بعد وفاة أبي بأشهر . يومها كتبت إلى دمشق ، وبالضبط كتبت إلى صديق لوالدي بالجامعة . قلت له ان أحد السفراء العرب هناك توسط لي لدى إحدى الصحف اللندنية للعمل فيها بالاضافة إلى دراستي وعملي مع « البي . بي سي »،وانني بدلاً من أن أفرح أصبت بهلع مروع .. أحسست أنني لو قبلت فسينطبق فخ الغربة علي نهائياً ، وسأسقط فيه بعجز أية فأرة صغيرة تطبق أسنان الفخ على عنقها . كان المخرج الوحيد في العودة إلى دمشق ، ولكن « عرّابي » لم يجب ، لم يكتب لي حرفاً واحداً ..

ودمشق لي لم تكتب لي مباشرة لتقول لي تعالي .

وكنت أنهض مع كل فجر على صوت الحمام اللندني الحزين ، الذي يبدأ أول ضربة

في سيمفونية الفجر هناك ، وكان ينوح مثل فريق من الندابين استأجرته روح شريرة ليرثي موتي اليومي مع كل يوم جديد أحياه . وكنت أقبع تحت الفجر الرمادي مثل سجين يجلده البرد والانتظار... وأنتظر... وانتظر حتى يأتي ساعي البريد، وأسمع الصوت الأليف لسقوط الرسائل على الأرض .. وأركض إلى الرسائل بحثاً عن رسالة « عرّابي » .. ولا أجدها .. وأحمل زجاجة الحليب التي يتركها البائع كل صباح قرب الرسائل ويصير للحليب طعم السم . (ربما لم أكن يومئذ أرغب حقاً في العودة ، لكنني كنت دونما شك أرغب في أن تظل إمكانية العودة قائمة !! ..) ..

يوم ويوم ويوم .. ولم تأت رسالة صديق الوالد الذي رباني طفلة ... ولم يقل لي حتى لماذا حكمتني دمشق بالسجن ثلاثة أشهر . لقد تبلغت الحكم الغيابي حتى دون أن أعرف السبب ! كنت تماماً مثل سجين كافكا ، محكوم بلا جرم يعرفه . **(وحتى حين علمت بأن السبب في الحكم هو قانون رجعي المفعول، يدينني لأنني من حملة الشهادات العالية ، وقد تركت عملي في دمشق دون إذن مسبق ورحلت ، لم أشعر بأنني مذنبة ... فقد كنت أجهل تماماً وجود قانون كهذا ، ولم أدر به إلا بعد أن حُكمت بالسجن ... ولو أحسست بالذنب لرحلت إلى السجن الدمشقي على أول طائرة ولأصررت على الدخول اليه حتى خارج أوقات الدوام الرسمية للسجان.. وحتى بعد أعوام طويلة حينما أصدر رئيس البلاد في أوائل السبعينات عفواً عاماً عن هذا «الجرم» شملني ، لم أشعر بأنه غفر لي بقدر ما شعرت بأنه قام بفعل محبة ، إذ مسح خطأ قام به آخرون نحوي .. لم أشعر بأنني مذنبة سابقة ، وإنما شعرت بأن دمشق عادت لتدفئني بحبها) .**

ولكن رسالة صديق الوالد لم تصل . وقررت : لا ريب في أن دمشق تحب أن تكتب مباشرة لأطفالها المشردين في غابة الحياة ... وأن رسالة منها لا بد وأن تصلني ذات يوم ... ورغم الصمت المطبق ، لم أسقط نهائياً في فخ الغربة .. كان جسدي يركض في أوروبا بجنون الشهية إلى الحياة والرغبة في اكتشاف الأشياء ، وكانت جذوري تمعن تشبثاً بتربة آسيا ، وتتغلغل في حنايا ترابها مثل طفل يدفن وجهه في جسد أمه العظيمة .. وكنت كل ليلة أحلم بأنني أسير في دمشق .. في شوارعها . كانت قبيلة معارفي تهاجمني بوجوهها ثم تذوب بلا رحمة في القطرات الأولى لليقظة .

وكانت الرسائل تصلني من الجميع ، إلا من دمشق ... وكنت أمزق رسائل الأحباء بحنق ، فقد كان لها في غربتي طعم حزمة من الغاردينيا تُقدَّم لامرأة جائعة

تفضل رغيف خبز .. ولم يكن من الممكن أن يداوي جوعي المسعور للحنان غير رغيف حب دمشقي. مرت أعوام فقدت خلالها أعضائي النفسية عضواً بعد آخر على شوارع المدن التي تشردت فيها ... كنت أخلف في كل مدينة جزءاً من طاقتي على الفرح . والتوق ، والانتظار . وأينما كنت ، في جنيف ، كوبنهاغن ، زوريخ ، باريس ، روما ، كنت أنهض مع الفجر لأسأل موظف الفندق أو صاحبة الدار عن رسائل لي رغم أن أحداً لم يكن يعرف عنواني ! .. كنت واثقة من أن دمشق ستكتب لي وأنها تعرف عنواني أينما كنت لو شاءت ! . وصحيح أن الطفل يقطع حبل سرته حين يغادر رحم أمه ، لكنه يوم يغادر رحم وطنه يزداد الحبل الذي يربطه به سماكة وثخناً حتى يتحول إلى جسر لا تهدمه الزلازل العاطفية كلها . وكان ذلك الجسر الذي يشدني إلى دمشق يكبر كل يوم كالجسد الحي . وينبض ويخفق مع نبض الانتظار في قلبي ...

وكنت أشيخ بسرعة ، لقد كبرت في أعوام ألف عام وأحرقني صقيع أوروبا ، وجرفني نهر الحزن الذي لا عودة منه ، ولكنني ظللت أنتظر رسالة أمي دمشق كي تعيد إلي الطفولة والفرح العتيق .. وانكسر في داخلي شيء إلى الأبد فاكتشفت الرابطة التي تشدني إلى المكسورين أمثالي نساء ورجالاً ، الجائعين إلى رغيف ما : رغيف قمح ورغيف حنان ..

وأخيراً جاءت الرسالة !

هل يمكن أن تكون هذه الرسالة أمامي ، المصفرة كوجه لوحته الشمس وغبار السفر ، إلا الرسالة المنتظرة من أمي دمشق ؟ .

ترى بأية لغة تخاطبني ؟ وهل ستفوح من الرسالة حين أفتحها رائحة البارود والياسمين ؟ وبأي حبر تختار أن تكتب ؟ بالأخضر من نسغ الغوطة أم بالأحمر من بردى ممزوجة بتراب جبل الشيخ ؟ . وخطها ، هل يمكن أن يكون إلا قريباً من خط الأطفال والأنبياء ، لا من خطاطي الرقعي والثلث في التكايا ؟ .

وكيف تبدأ رسالتها إلي ؟ هل تقول لي : « ابنتي الضالة ، عودي إلى رحم حناني . فقد طال عذابك ! عودي يا نزف قلبي فقد اشتقت لنوارسي المشردة ؟ » .

أم تراها تبدأني بالعتب : « لماذا يا ليلى الضائعة في الغابة تركت بيتك الآمن وتبعت الذئب ؟ » أم تراها تعرف أن الحماس والشهية إلى المعرفة ، اللذين رضعتهما فيها ، حرضاني على أن أقذف ببوليصات التأمين من النوافذ ، وأحرق كل الوصايا الاجتماعية

المتوارثة التي تقدم مواصفات جاهزة محددة لطبخ وجبة الاستقرار ، راكضة في العالم الواسع باحثة عن حقيقته وحقيقتي بلا خوفٍ ولا ندم ؟

تراها تكتب لي عبارة واحدة فقط : « بوركت يا ابنتي الشجاعة » ، أم تراها ترسل على رأسي غضبها كصاعقة محرقة : « فلتحرق اللعنة حنجرتك كلما ضحكتِ ! »؟

ومزقت غلاف دمشق لأقرأ الرسالة ... لم تكن مكتوبة بحبر بردى وتراب قاسيون ، ولا بخط الأطفال والأولياء . وانما كانت رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة ! ولم تكن رسالة حب أو عتب أو شوق أو غفران أو لعنة ... كانت فاتورة !

أجل ، فاتورة من احدى المؤسسات التي عملت فيها منذ عشرة أعوام،قبلِ رحيلي من دمشق ، تطالبني بمبلغ ١١٥ ليرة سورية وفرنك واحد فقط لا غير ، فروق رواتب مقبوضة من قِبَلي ، إلى آخره إلى آخره .. (إذن وحده كومبيوتر الفواتير لم ينسني !) ...

فاتـــورة ؟

ولو جلست وإياك يا دمشق حول مائدة مستديرة وأبرزت لي فواتيرك كلها ، لما قلت لك غير عبارة واحدة : « لك عمري ! .. لفواتيرك عمري الضئيل الذي لا يكفي ، ولا يعني أكثر من عمر بعوضة صغيرة تقف لبرهة فوق نافذة دهرك المشرعة على أفق التاريخ»..

دمشق . لك عمري ،

لا ١١٥ ليرة وفرنك واحد فقط لا غير !

وهذي السطور أكتبها لك على الهوامش البيض للفاتورة ... (وأعيدها إليك مرفقة بالمبالغ المذكور أعلاه) .

آه كم كتبت لك ! على البخار المتكاثف فوق زجاج مدن نائية باردة ... على حقول الثلج كتبت لك . على الطاولات في حانات حزينة ، على جدران الطائرات الملاصقة لمقعدي كتبت لك . فوق خشب صالات الترانزيت في المطارات ، على بطاقات التطعيم ، فوق غيتاري كتبت لك . على أرصفة لندن بالطبشور الملون رسمتك وحرست اسمك من المطر . على إطارات دراجتي النارية . على أربطة الشاش الأبيض التي تلف جرحاً ما . على قبعة الأستاذ . بالحبر الأحمر طالما كتبت اسمك فوق جلدي باصبعي ...

آه كم كتبت لك ! وهذي السطور أكتبها لك اليوم على الهوامش البيض للفاتورة ..
وكم انتظرت وسأظل أنتظر رسالتك ! ..
وسأسال عنها وأنا أحتضر .

(من « ابنة ما » لك ببيروت – تشرين الثاني ١٩٧٣ – بواسطة المعرفة *) .

* نشرت يومئذ في مجلة « المعرفة » السورية .

١٩٧٣/١٠/٢٢

الرصاصة لكِ، والجرح لي ! ...

حينما أغمض عينيّ ، تندلع الحرائق فيهما . ففي عيني اخترتك يا دمشق ، حملتك عاماً بعد عام ودرت بك الدنيا ، ودارت بي الدنيا وكنت أبداً ملجأي ومبكاي ومبخرتي وبوصلتي ، وتعويذتي التي بها أطرد شرور العالم ... وكنت الجزيرة الوحيدة المخضرة في بحار الذاكرة الدامية .

مثل زهرة دوار الشمس كنت أدير وجهي ملاحقة رقصة العصر المسعورة ، ولكن جذوري كانت أبداً مغروسة في « قاسيونك » ونسغك يصب في شراييني ، وكانت الغربة عنك مزيداً من الالتصاق برحم تاريخك ...

دمشق ، يا أيتها العريقة كسنديانة الأساطير ! طيورك المهاجرة تقطنك أينما كانت ، تحترق أجنحتها إذا مرت بصمودك صاعقة ... دمشق ، يا لؤلؤة الزمن ! ليست صدفة أن تضربك اسرائيل . فأنت أقدم مدينة في التاريخ ، وفي مجرد (وجودك) تحد لكل ما يفتقد إلى العراقة والأصالة والعظمة الانسانية . لقد كنت دوماً مقبرة الغزاة ، وكل هجمة بربرية « تيمورلنكية » كانت تتكسر عند أقدامك ... وهذه ليست أول مرة تحاول فيها فئات مقاتلة هجينة تطويعك ، ففي لوائحك السريانية والآرامية وفي لوائحك المكتوبة بأول أبجدية اخترعها العالم ، حكايات دفاعك عن الإنسانية والأصالة ، وخابية الفرح المعتقة في أرضك ... ولبني اسرائيل مطامح فيك منذ عهد داود الذي هزمك إلى حين ، كما هزمت في ١٩٦٧ إلى حين .

* * *

هل هي صدفة أن الغارة الاسرائيلية الأخيرة على دمشق أصابت ، في ما أصابت ، ما يلي : مستشفى الشرق الأوسط ، المركز الثقافي السوفياتي ، دار المعلمين والمعلمات ، نقابة الأطباء ، مبنى الاذاعة والتلفزيون ، بيوت المدنيين ؟

أي أنها ضربت ما يلي : **مستشفى، مدرسة ، مركز ثقافي ، مركز اعلامي ، أبرياء عزل ؟!**

ألا تختزل اسرائيل بهذه الغارة وحدها كل ما تمثله ، وتكتب صيغتها بكلمة حروفها القنابل ، تقول ببساطة : **« أنا ضد الثقافة الممثلة بالمركز الثقافي . ضد الانسانية الممثلة بالأطباء والمستشفيات . ضد الطفولة والبراءة الممثلة بالأهلين العزل. ضد الحضارة واللغة الممثلة بمركز اعلامي ؟ »** . وهل كانت صدفة أن تضرب اسرائيل شارع السفارات لتعلن عن عدائها الشامل لشعوب العالم كله ، وهل هي صدفة أن قتل وجرح في الغارات رجال ونساء من الأمم المتحدة يحملون جنسيات الدول الآتية :

هولندا ، بولندا ، فرنسا ، باكستان ، ايرلندا ، النروج ، الهند ، روسيا ؟

هل هي صدفة ، أم هو بيان لخطة عمل اسرائيل ، وبرقية مكتوبة بالصواريخ تحمل اعترافات اسرائيل بنواياها وتهديداتها للعالم المتمدن بأكمله ؟!

وحين فقد العدو أعصابه أمام هزائمه في الجولان ، وانطلق يضرب على غير هدى ، ألم يكن عقله الباطن هو الذي يحدد أهداف العدوان ، فكان الهدف ممثلي العالم في شارع السفارات في دمشق ؟

عشرات الطائرات حملت الجحيم وركضت به فوق وجه دمشق الناصع ، جرحته ولكن ما ظفرت بدمعة . زرعت فيه الحرائق : أشعلت مدرستي وبيتي وشارعي وأسرتي وقبر أبي ... ولكن ما هم ! دمشق الحرائق تضيء ... وكالفينيق تولد من الرماد . وككل الأمم المقاتلة من أجل الحق والانسانية ، ينبت ثوارها من حطام البيوت، ويخرجون من الزجاج المحطم ، كما تشق الكمأة موات الصحراء وتخرج من العدم حين يمر بها طائر الرعـــد .

* * *

يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر ، الساعة ١٢ ظهراً ، بدأ عرس الدم في دمشق . أمطرت السماء ناراً وزجاجاً مسحوقاً وحديداً وأجساداً ممزقة . ونبتت أنياب دمشق وأظافرها ، وولدت هانوي العربية ، وصارت شوارعها أنهار مقاتلين ، ولم يهرب المواطنون إلى الملاجىء ، بل وقف أكثرهم يتأمل ما يدور كما يخرج الناس من بيوتهم إلى الحقول حين يهطل المطر للمرة الأولى مع الخريف ...

مطر القتال ، مطر الدم ، مطر النار كان برداً وسلاماً على قلوبهم التي قتلها القهر طيلة أعوام ستة تساقط خلالها ثلج الذل باستمرار ، بصمت ، بهدوء وكاد صقيعه يطمر النفوس ويحجر الآمال ببعث جديد لأمتنا ... حتى وكالة الأنباء الفرنسية لاحظت أن ردة فعل المواطنين في دمشق على الغارة لم تكن عادية ، ففسرت ذلك بقولها ان « الغارة أثارت الفضول في شوارع دمشق أكثر مما أثارت الفزع » ! إذ لم يعد لدى المواطن العربي فزع يفوق فزعه من الاستسلام لحالة « اللاسلم — اللاحرب » على الطريقة الاسرائيلية .

* * *

دمشق ، هانوي العرب ... فصحيح أن عشرات البيوت تهدمت فوق رؤوس أصحابها ، والسيارات انفجرت بأهلها ، وأغصان الأشجار في الشوارع حملت ثمار الحرب البشرية الممزقة الدامية ، المعمدة بقربان الدم ، إلا أن الشمس عادت تشرق من جديد في عيون أهلها . ففي كل شارع ، وكل زقاق ، وعلى سطوح المنازل ، وفي شقوق الأرض المحفورة بالقنابل ، وفي مسام التراب يفور المقاتلون الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ سنة و ٦٠ سنة : الرشاش في كتف ، وسلة الأكل في الكتف الأخرى ، والكمامات على وسطهم . الحياة العادية تتسلل من جديد إلى قلب المدينة ، والطائرات الاسرائيلية تتابع تسللها إلى سماء المدينة ، وفي أية لحظة قد تطلق صفارات الانذار صرخة أذان جديدة في فجر ملحمة الدم . إنها الحرب ، وها هو إنسان عربي مقاتل يعي موقعه الحقيقي ، ولم يحدث أبداً أن أطلق أحد رشاشه حزناً على فقيد تحت الأنقاض أو احتفالاً بنصر (كما يحدث في أقطار عربية أخرى ما زال السلاح لديها من لوازم الأفراح ودفن الموتى فقط لا غير !) فالسلاح لصدر العدو ، والعدو فقط .

دمشق الحرائق تضيء منارة في ليل ذلنا الطويل ...

وعرس الدم في دمشق لا يمكن أن يخلو من نغمة باكية أسيانة ، فالحرب هي الحرب ، والطبيعة البشرية لا تتبدل ، لكن النغمة الغالبة في سيمفونية الحرب السورية هي الوعي الجماعي بأنه لا مفر من دفع ضريبة الدم من أجل الحياة بكرامة ، وذلك يتم بقبول واع رزين أكثر من « يوفوريا » خطابية ...

في دمشق ، حمص ، اللاذقية ، بانياس ، والمدن السورية الصامدة كلها ، يواجه المواطنون الحرب بنضج عربي تتكشف عنه نفوسهم يوماً بعد يوم . إنها الحرب تكشف معدن الشعوب كما النار تكشف الذهب .

المهم أن خرافة الطيران الاسرائيلي الذي لا يقهر ، كما لو كان سرباً من طيور الأساطير ، هذه الخرافة سقطت في تشرين دمشق مع أوراق الخريف . وخلفت في شوارعها حطام الطائرات منحوتات وأنصاب مجد ...

* * *

دمشق الحرائق ، يا مدينتي الملتهبة ، المضيئة ، أينما كنا ، فكل رصاصة تُطلق عليك ، تستقر في صدورنا ...

* * *

لك حبي ولي ذاكرتي

طالما دفعت بي حاجتي إلى الحنان ، لالتماسه عند أشخاص كانوا يحاولون تدميري .

— فان غوغ —

العقل لا يحكم القلب أبداً ، لكنه يصير شريكاً له في جرائمه !

— ميتون ماكلوجلين —

دعونا لا نثقل ذاكرتنا بعبء مضى .

— شكسبير —

برلين ١٩٧٣/٨/١٢

وكن موتي الأخير* !..

ولم يتراكم الغبار على وجهك في ذاكرتي ؛
ولم تكسُ الطحالب والأعشاب صورك .
ولم يصدأ بريق عينيك .
ولم تصبح أيامنا راية منكسة منسية ؛
نصف محروقة بعد معركة خاسرة .
ولم يصمت صوتك في حلقي .
ولم أضيعك في زحامي المجنون ،
ما زلت أقبض بيدي على يد ذكراك .
أتشبث بها في زلزالي ،
ما زلت تقطن تحت جلدي ...

* * *

أيها الغريب .
الصدق الذي يفجر اللغة
هو نفسه الذي يشلها أحياناً ...
وإلا لكتبت دائماً لك وعنك وحدك .
ومع هذا ، أحدثك باستمرار :
أسمع كلماتي متعبة ونائية ،
كسعال طفل يقف في البرد خلف الباب :

---

* نشرت المقطع الأخير منها على الغلاف الثاني لكتاب «حب» — الطبعة الأولى — ونسيت نشرها بأكملها يومئذ في الكتاب المذكور !!

والباب ضخم وموصد .
أحياناً أتمنى أن أصب بنزفي في أحد شرايينك ،
فأكتب لك :
أمد حروفي أصابعَ إلى عالمك ، (لفها بيدك) .
ولكن عبثاً أكتب !
أقول لك : الصدق المطلق لغم اللغة ...
إنه يطيح بمقالع الكلمات في الجو .
ويهشم رخامها أمام زوابع وجعه ...

* * *

غيابك يغتالني .
وحضورك يغتالني ، لأنه عتبة لغياب جديد .

* * *

حينما نلتقي في الشوارع فجأة .
حينما نلتقي صدفة كما يلتقي الغرباء .
تخترقني صورتك ،
كرصاصة محكمة التصويب إلى جبهتي .
تماماً في منتصف المسافة بين العينين ... (حيث كان يحلو لك أن تقبلني) ،
وحينما أسمع صوتك من جديد ...
يخفق قلبي .
كجسد عصفور طار تحت الثلج مئة عام .
فوق محيطات العذاب :
ثم لمح جزيرة ...
وأتوق اليك ،
توق الموقد إلى النيران وخبز الفرح ،
وأتوق اليك ، وأتساءل
ترى هل الأخطبوط امرأة أحبت كثيراً حتى اللاارتواء
فمنحتها الآلهة عشرات الأذرع
وقدرة لا متناهية على الاحتضان ؟
يدهشني — حينما أراك

انني لا أملك سوى ذراعين ،
وانه لم ينبت لي المزيد منهما .

* * *

أنت يا أنا .
وحينما أحدق في المرآة ،
أجد وجهك فيها بدلاً من وجهي !..

* * *

من الأعماق .
من أعماق بئر الصمت المسكونة بهذيان الشوق
من أعماق ذلك الجرح الذي لا قرار له ،
من أعماق بحيرات الذاكرة ،
ومياهها المعتمة الغامضة ،
ينبض الشوق إليك ،
ينبض ، ينبض ،
مثل طائر أسطوري يقطن ظلامها بسرية مروعة ...
من أعمق الأعماق ،
من أعماق نهر الجنون ،
وطبول الذكريات تدق في قاعه ،
وورود النار والندم تنفتح على ضفتيه ،
من أعماق جحيم حبي
وحبي جحيم توجك إلهاً للألم ،
أناديك ...
تعال امتلكني كالموت .
فليس لامتلاكه شريك أو وريث ..
تسلل إلى زحامي دون أن يلحظك أحد ، كالموت ...
خفيف الخطى سيد الساحة كالموت ...
خذني إليك فجأة كالموت ...
ضمني إليك كالكفن .
وكن موتي الأخير !

اسطمبول ١٩٧٤/١/٧

وصل الحب . رحل الحب

... كان لك اسم من الأسماء
عادي ككل الأسماء
فأسميتك « الحب » .
... كان لك وجه
عادي التضاريس ككل الوجوه
فزرعت في إسفلته حقلاً من الأقحوان والبنفسج .
وصيرت ابتسامتك قوس قزح
وشعرك زوبعة بحرية
وأنفاسك مبخرة الزمن الجميل ...
... كانت لك عينان
تحملان فواتير الهموم العادية ...
فأشعلت فيهما نيران العراك
وأضأت مصابيح فتورك
بجنون التحدي ،
وأيقظت ديكة شراستك
فقامت تعلن عن فجر قتالنا .
... وكان دمك الملل والتكرار
فصيرت شرايينك شوارع مهرجان !..
وكانت أيامك رتيبة متشابهة ،
مثل أسطوانات « جوك بوكس » عتيقة منسية ،
فصيرتها سيمفونية مثيرة

مثل أغاني عرائس البحر لـ « يوليس »
ونداء جنيات الليل والفرح
بشعورهن المبتلة بالمطر
وأظافرهن الطويلة كأعواد ثقاب خرافية
يشعلن بها القمر والنجوم ...

* * *

لقد منحتك الحزن ،
وأطفأت غرور عينيك
إذ مسحتهما بزيت الألم المقدس ،
لقد منحتك وجع الصحو
وكنت ساقطاً في مجد الرتابة ...

* * *

علمتك كيف تستمتع بعراك طواحين الهواء ،
علمتك كيف تبني قصورك في الرمال .
وكيف تسكن معي بيوتاً من أوراق اللعب « الكوتشينة » ،
بعد أن كانت عماراتك الحجرية
هي كل ما تعرف ...

* * *

دمرت حصار أقراصك المنومة والمهدئة ،
وزرعت الأحلام والكوابيس في نومك الميكانيكي ...
انتزعتك من لحنك اليومي المفضل : ضربات الآلات الكاتبة ، والطابعة ، والحاسبة ، لسكرتيراتك ...
وعلمتك موسيقى الشاطىء الآخر
في قيثارة الحناجر المذبوحة !..
وإلى سماء عينيك أعدت السحاب والمطر ...
وهدمت جدران ذاكرتك ، وأعدتك للبكاء ، والدهشة ، والانتظار ... وربما الصلاة !

* * *

لا تتحدث عن الندم
لا تحص خسائرك .
لا تقدم تقريراً بأيامك الضائعة معي ،
يكفيك مني انني منحتك القدرة على الحب ،
أعدتك أيها الضال في مفاوز الثروة والشهرة ،
إلى وطن الحب .
وأوقفتك على بابه
كما بقية رعاياه ، من البسطاء والدراويش والفقراء ،
حافي القدمين ، وعلى شفتيك أنشودة شاعر جوال !

* * *

يكفيك مني ،
انني حررتك من مقعدك الهزّاز الدوّار الفخم .
ولو لعام ،
وأخرجت لك من تحت بزاتك الثمينة
جناحيك المنسيين
لتطير بهما شفافاً كفراشة من نور ،
معذباً وخافقاً كشراع ضال ،
يكفيك مني :
أنني ذكرتك بقارة الألم
الأوسع من قارة الرضى ...
وأن الشوق أهم من أسعار الذهب في البورصة العالمية ،
وأنك كَوْنٌ من الغابات والصواعق
والسماوات المضيئة والليالي الطويلة ،
ولست مجرد اسم في دليل الهاتف
له خمسة أرقام !..

* * *

فلينته كل شيء كما بدأ
بسعادة وامتنان متبادل ،

وكف عن سؤالي : لماذا ؟ ..
لست أنا التي أمضي ،
إنه الحب مضى :
جاء ، وقضى فصوله الأربعة معنا
وولى
كما يولي عام ليبدأ عام ،
فالحب ليس ضيفاً ثقيلاً .
يقيم إلى الأبد .
انه دورة من دورات الطبيعة ،
كان لنا شتاؤه وربيعه وصيفه وخريفه ،
وها هو يرحل ! ..
وكما جاء يرحل ، بخطاه الخفيفة كخطى « بابا نويل » .
حتى دون أن يترك آثار أقدامه على ثلوجي وبحاري !..

* * *

وصل الحب . رحل الحب .
تلك هي الحكاية ببساطة :
فلنودّع حبنا بامتنان ، لمجرد أنه كان ...
ولنودعه بصمت وكبرياء ،
لا كما يودع الناس عاماً رحل .
بالبالونات والورق الملون والزعيق
لنودعه بصمت كبير
فقد كان حباً كبيراً !..

صوفر ١٩٧٤/٢/٤

ثلج النسيان الأسود

(إلى ابتسام وأمير)

ذات يوم ، في بابل ، أشار « أمير » إلى كومة حجارة وحائط عتيق مهدم وقال : « هذي بابل ... وهذي بقايا برج بابل الذي كان من عجائب الدنيا السبع . أليست هذه البقايا القليلة مخيبة للآمال ؟! »

وركض خيالي المجنون في الصحراء يعيد تعمير كل ما كان ... وامتد شارع « الموكب » .

واصطخبت المدينة بالألوان ...

وضحك الأطفال .

وانتصبت الجنائن المعلقة من جديد ، وسمعت شلالات المياه تتفجر ، والطيور تهب ، والريح تزقزق ...

وخيل إليّ أنني أشاهد المرأة ، التي شيد ذلك كله لأجلها ،
وهي تركض عبر الأشجار .

* * *

ها أنا وحيدة تماماً في حقل من الثلج لا متناهي الأبعاد ..
وحيدة مثل فزاع طيور منسيّ
وقد احترق القمح وماتت العصافير
ورحل الرجل والبيادر ...
وحيدة مع ذلك البياض الزائغ ، الشرس ،

المليء بالتحدي والمكر البريء .
المهيمن بقسوة سرية .
شيء ما في ذلك كله يذكرني بك ...
(آه كيف يندف القلب الحزين ثلجه الأسود
ويصير عمرنا حقلا من الثلج الأسود الشاسع :
قاتماً وكثيباً كالصدأ !) ...
وكما أعاد خيالي تعمير بابل
ذات فجر ضبابي في العراق ،
ها أنا في حقول ثلج لبنان أعيد تعمير مدينة حبنا ...
وأستحضرك ... أنت يا ضائعاً كشهقة ، وحزيناً كجمرة .

* * *

أيها الشقي ،
قرصان النسيان قد مر على بواخر حبنا سبع مرات
وهولاكو الزمن سرق كنوزنا وهدايانا ،
وتيمورلنك أحرق كرمتنا ورمى إلى النهر بصورنا ورسائلنا
فاحمرت مياهه ..
وقلتُ انتهينا .
وقالوا انتهينا .
وها أنت تمد أصابعك الدقيقة نحوي ،
ثم تغرسها في قلبي مرة واحدة كخمسة خناجر ...

* * *

حين يغمى على الذاكرة ،
ويرحل الصحو عن مفاوز القلب ،
يزهر الفرح العتيق ،
وأعود قادرة على النظر إلى وجهك

دون أن ينزف جرح سري في روحي ...
وها أنت تزدهر . تزدهر
تصير حقلا من الأقحوان .
ها أنت تسري في الأرض أزهاراً بنفسجية اسمها « لا تنسني »
(Forget me not) من قال لك إنني نسيت ؟!) ...
تعال أيها الشقي ، تعال نطير ، نطير ،
نصير حفنة واحدة من الثلج الشفاف
وتحملنا خيوط النور والفرح لنهطل
من الأرض إلى السماء ..
آه ! عبثاً نعاود الطيران
عبثاً نحاول التحليق عن أرض آثامنا ،
وإساءاتنا المتبادلة حبال ستظل تشدنا أبداً إلى مستنقع التيه ...
إن ثلجنا الأسود في الداخل يلتهم بياض العالم كله ...
الثلج الأسود يفور من عينيك ، من فمك ، من أذنيك ، من جسدك كله .
لا يبقى من لحظة الرؤيا البيضاء
سوى هيكلك العظمي المزروع أمامي ؛
والثلج الأسود يتفجر منه .

* * *

وحيدة في ثلوج لبنان .
ها أنت تضرب عصاك في صحراء الثلج ، يصير لونها أسود
ها أنت تمسني بعصا حزنك السحرية ،
ويبلل المطر قاع عظامي ...
فلتكتف مثلي بلحظة رؤيا عابرة ... هذا كل ما تبقى منا ولنا ...
والخيال قد يعيد بناء بابل لكنه لن يعيد الحياة إليها ...
لا تعتب !
على زجاجك الموصد هطلت أكثر من مرة
وكنت أضمحل كل مرة دون أن تمد يدك لتلمني اليك
... وكنتَ دوماً تبكي رحيلي دون أن تحول دونه !..

لماذا ، بعد أن علمتني أن أعيشك وهماً وتعيشني حلماً
عدت تبحث عن ماهيتي وحقيقتي ؟ ..

* * *

من جديد أسقط في الرؤيا البيضاء ،
وأنت الذي صوته صفير البواخر الراحلة المسكون بالحزن
تسألني : « من أنت ؟ »
وتنتشر حولك في المدى الأبيض سبع نساء كلهن أنا ! ..
هل تذكر ؟
مرة في دمشق قتلتني ،
وفي ضوء القمر دفنتني وبين ثلوج النسيان طمرتني
وظننت أنك استرحت ... لم تكن تدري أنه كان عليك أن تقتلني سبع مرات !
سبع مرات ! .
أفعى تسعى في لحم ذكرياتك ، لا شفاء مني ! ..

* * *

لن أكون لك ،
وكي أمعن في إيلامك
لن أكون لسواك أيضاً ! ..

* * *

أيها الشقي ،
كيف كان كل ما كان ؟ ..
كيف أبحرنا في نهر الفراق الذي لا عودة منه ؟ ..
لم أعد أذكر ..
كنا نصف جادين ، نصف هازلين (هكذا الفواجع دائماً)
كنا نلهو فوق ثلج عمرنا قبل أن يتسخ ،
وتسلينا ببناء سور
ثم اكتشفنا أننا بنينا السور فيما بيننا ...

ومن يومها وأنا أناديك وأنت تناديني من خلف السور ..
آه كيف استحالت النكتة البيضاء إلى ثلج أسود !..

• • •

حين جاء دوري :
بهدوء وإتقان قتلتك سبع مرات .

• • •

لم أعد وحيدة فوق الثلج .
جاء الأطفال . وها هم يلعبون .
يقتربون مني ، يتأملونني ويرقصون حولي منشدين : « المرأة الثلجية ، من صَنَعها؟! »
ثم فجأة يركض أحدهم إلى أمه باكياً : « ان دمية الثلج تبكي ! »
أمه ،لا تصدقه ...
وأنت : حتى أنت لم تصدق !..

• • •

حين جاء دوري :
بهدوء وإتقان قتلتك سبع مرات :
تركت دمك يسيل فوق جبال حقدي البيض نهراً مشتعلا قاني الحمرة .
واستحميت بدمك وشربت واسترحت ...
استرحت ؟
لا .
من يومها وأنا ما أزال أطاردك في دهاليز الكوابيس
التي فتحت أبوابها اللامتناهية والثلج الأسود يفور فيها ...
غداً أقبض عليك أيها الراكض داخل كوابيسي وأحلامي :
وبهدوء وإتقان :
أقتلك من جديد سبع مرات ...

دبيبو بالروشة ـ ١٩٧٣/٢/٢

سأحبك ... ريثما تطلق الحياة سراحي !

يا غريب ...
في هذا العالم المسكون بالخيبة والرعب
ماذا تبقى لنا سوى أن نحب ؟ ...
في هذا العالم الهرم بالحروب وحكايا القتل
في هذه الكرة الأرضية
السابحة في بحر من الدماء والخيبات والأطفال محروقي الخدود
ماذا تبقى لنا غير الحب ؟ ...
في هذه المدينة الصحراوية العطاء
حيث تتساقط كلمات أصدقائنا المرائية
وجسورهم الممدودة إلينا في فضاء وحشتنا
مثل ريش طيور ميتة ...
وفي زحام الشكوك والعتب
وأقنعتهم وزيفهم وأمنياتنا المنطفئة
نشعر بعرى القلب الذي لا تدفئه قفازات المجاملات ...
وحين نرفضهم جميعاً ونرفض تاريخنا معهم
ماذا يتبقى لنا غير الحب ؟ ...
وفي زحام الأيدي المصفقة لنجاحنا
والأيدي المصفقة لسقوطنا
ـ ربما بحماس أكثر ـ
وفي حلبة السكاكين ،
التي يرشقنا بها أولئك الذين ادعوا صداقتنا مرة ،

وتخلوا عنا لأننا لم نفشل ،
ماذا يتبقى لنا سوى الحب ؟ ...

* * *

« ليست هنالك قصة حب يمكن أن تدوم أكثر من أسبوع » ...
ربما ... ولكن ... أسابيع وأسابيع ...
وحبك رمى بمرساته في أعماقي ...
وعمري أضحى حينما تغيب
غرفة انتظار في مطار مهجور ،
كفت الطائرات منذ زمن طويل عن المرور به ..
يختبىء الصمت الباكي خلف مقاعدها
وأحجارها ونوافذها وغرباتها ...
وجسدي شدّ إلى عقربي ساعة
يزحفان بي ببطء فوق أرض الانتظار
المفروشة بحطام فناجين القهوة وأعقاب سجائر مشتعلة ...
وحين تجيء
يصير العمر بيدر فرح ليلة الحصاد ...
لماذا أنتظرك منذ عرفتك
بلهفة محكوم بالاعدام عصبت عيناه ...
ولم يبق له ما يحلم به
غير لحظة سقوط المقصلة في ذاكرته ؟
« ليست هنالك قصة حب يمكن أن تدوم أكثر من أسبوع » ...
ماذا نسمي ما يدور ؟ ..
وذلك الجرح الذي بدأ ينزف بصمت وسرية .
كما تنزف جدران الأقبية غير المكتشفة ؟ ...
وهمساتنا المسروقة التي نرمي بها لصمت الحانات الجبلية
كما يُرمى بأطفال الخطيئة على أبواب الليل ..

بسرية وبحزن كبير ؟
ماذا نسمي هذا كله ؟

• • •

« الحب علاقة تنشأ بين اثنين أثناء مرحلة المراهقة ...
وقد تجاوزناها » ...
أيها الشقي ، لك أقول
الحب علاقة تنشأ بين اثنين أثناء احتضارهما ... ونحن محتضران ...
أيها الشقي ، تهدر الزمن كما لو انك تملكه ...
لحظات لقائنا تتركها لمزاج الصدفة
كأن الزمن متسول يقبع أمام بابك .
من آن لآخر فلنعد أطفالاً رغم احتضارنا ...
نحب بلا ادعاءات ونحزن بلا كبرياء متعالية .

• • •

يا غريب ، ترى أين أنت الآن ؟
أعني ، كيف يمكن أن تكون في مكان آخر ،
وأنت تقطنني هكذا وتكونني ؟
أفتقدك ؟ لا .
أكذب إذا قلت لك انني أفتقدك ...
كيف أفتقدك وحضورك ما يزال يفترسني ...
إني أفتقد غيابك ...
أشتاق إلى رحيلك عن جسدي وأعصابي وكياني
وأذني وذاكرتي وغدي ...
أمنياتي شريط من أصابع الديناميت
قد عُصبَ بشدة حول جمجمتي ،
وأحس بحديثك الليلة فتيلاً اشتعل فجأة .
وأخذ يفجّرها إصبعاً بعد الآخر على التوالي ...
إذن تريد أن أكون معك ولك ؟ ...

تريد أن أخلف كل شيء ورائي وأرمي بكل شيء
لآتي إليك عارية من الماضي والمستقبل ؟
لا .
فليظل الشريان النابض نصف المقطوع
معلقاً بين الحضور والغياب .
وليظل النزف العذب
مستمراً كبركان حي
لا ينفجر كي لا ينطفىء بعد انفجاره ،
وانما يظل يخفق هكذا بكل صخوره وأشجاره
مثل قلب حي نابض وسط موات الطبيعة ...
ربما عبثا أهرب منك
لكنني سأظل أهرب كي تظل تحبني !
أريد أن أشتري حبك ولو بفراقنا
لأن من لا يحب هو ميت مع وقف التنفيذ ...

* * *

لماذا يدهشك انني لم أقل لك قط : أحبك ! ...
ولماذا لا يدهشك انني لم أقل لك ولو مرة : أنا أتنفس ؟
ما الفرق ؟ ...

* * *

أذكر اسمك ، والليل يجلد المدينة بالمطر والريح والوحشة ...
أذكر اسمك ، وأنا أركض في حلبة العمر السوداء
حيث العلاقات مع الآخرين مثل مسيرة في حقل مزروع بالالغام ...
أذكر اسمك ، حينما تصير بشاعة هذا العالم
قميصاً من الشوك
لا ندري كيف نخلعه ..
أذكر اسمك ... وأنا في معتقل الضجر
أنتظر أن تطلق الحياة سراحي ...
أذكر اسمك ... لأنه تعويذتي ... وصلاتي الأخيرة ...
وملجأي الوحيد المتبقي في أرض الرماد والثلوج ...
ومهما حدث ... ستظل أقرب إلي من طلقة نارية تخترق جبيني ...

١٩٧٤/٣/٢٥

كنا اثنين : أنا وحزني !..

هل أملك إلا أن أكتب عنه ؟

كلكم يعرفه ويحبه (ليس بينكم من لم يحبه ذات يوم على الاقل)، وليس بينكم من لا يحفظ ولو سطراً من أشعاره . وأنا أعرفه منذ صغري ، منذ شدتني إليه رابطة الدم والقربى ؛ وأحبه منذ وعيت أبجديته .

هل أملك إلا أن أكتب عنه ، وأنا التي عدت للتو من لقائه ، وخلفته في المستشفى خرجت إلى الشوارع وقد نسيت عنوان بيتي ؟..

مثل نمر فضي كان ساقطاً في فخ الفراش الأبيض والأغطية البيض والجدران البيض والسقف الأبيض ...

وصار الأبيض عندي لون الحزن !

* * *

هل أملك إلا أن أرتمي على أول كرسي في أول مقهى ، وقد نسيت طقوس التماسك التي أتقن ممارستها ؟ ..

كانت هناك منضدة أمامها كرسي واحد . لم أجلس اليها . اخترت منضدة لشخصين ، فقد كنا اثنين : أنا وحزني . منذ شاهدته كالنمر الفضي الجريح صرنا اثنين متلازمين : أنا وحزني .

وجلس حزني تجاهي . تأملني قليلاً .
ثم أجهش الحزن بالبكاء .
وبقيت صامتة .

* * *

هنا أنا أمد أصابعي المتعبة إلى صدري كالمخالب ، أنتزع من جوفه قلبي ، وأضعه أمامي على المنضدة ، وأسلمه القلم واتركه يكتب ...

فالحزن حين يستولي على القلب يقصر العقل عن رسمه ... ان « عقلنة » الخوف الكبير مستحيلة ...

وما أعظم خوفي وقلقي ... وأملي !..

* * *

كانت الانابيب تخرج من ذراعه اليسرى لتضخ إليه القوة ... وكانت يده اليمنى – التي بها كتب كل ما قرأتموه وأحببتموه – سجينة يحيط بها قيد قياس ضغط الدم بأربطته المطاطية ... وكان له وجه نمر سقط في فخ صياد غامض المزاج ...

حين رآني فتح عينيه الزرقاوين حتى آخر مدى في أفقهما وقال لي : « هذا ثمن الجهاد يا غادة ... » .

أردتُ أن أقول له أشياء كثيرة ... أن أمسكَ بيده لنعود إلى مدينتنا دمشق ، وإلى بيوتنا في « ساحة النجمة » ، وإلى ذلك الزمن الأكثر حناناً وهدوءاً ومرحاً .

أردت أن أقول له : « ولكن هل يستحق الأمر كل هذا الثمن ؟ »

لكنني لم أقل شيئاً لأن الشوك نما فجأة في حلقي ، الشوك والملح ... وفي عيني انعقد سائل ناري لا يهطل كالدمع ...

وكرر مرة ثانية بصوت متعب : « هذا ثمن الجهاد يا غادة ! .. »

* * *

لقد قرع القدر باب صدره ، وربح المرض جولة ، جولة واحدة فقط لا غير ، المهم ألا يربح المعركة ...

ولذا :

أناديكم أيها الطيبون والبسطاء والعشاق ، أناديكم يا من لا تزالون تعرفون الصلاة والبكاء ، صلوا لأجل أن يربح المعركة ، اغسلوه بالمحبة ، فالمحبة زيت الشفاء المقدس ...

ولتدخل صدره صرختكم لمسة حنان وعافية ... ولتملأ الجو كهارب لهفتكم وحبكم !

على بابه عبارة « ممنوع الدخول » .

ولكن زيت المحبة يضيء عبر الأبواب كلها ، ويخترق اللافتات كلها ...

« ممنوع الدخول » ؟

لا تصدقوا ذلك ! .. فلتعبر صرختنا إليه . ولتغسل وجهه المحموم بدموع المحبة ...

• • •

« هذا ثمن الجهاد يا غادة ! »

ولكن ،

هل يستحق الأمر كل هذا الثمن ؟! .

نعم يستحق .

ليس قليلا أن يقدر شاعر على جعل الشعر كالخبز .. يحبه الجميع ويتداوله الجميع . ليس قليلا أن تُخرِجَ الشعر من لفائف التحنيط لتطلقه مع الشمس إلى العيون كلها ... وتجعل لغة الشعر هي لغة القلب لا لغة محذلقي المجمع اللغوي والكتب الصفر (التي لا تتذوق أكثرها غير الفئران) !..

ولكن هل يستحق الأمر هذا الثمن ؟

لا. نعم . لا ونعم .

• • •

إن أحزان الشاعر لا تضيع مع الزمن ، بل يختزنها القلب حيث تنمو وتنمو في الظلام وبسرية مثل أشجار الأساطير ، ويصير القلب غابة للحزن والعين مرآة للذكرى ... وفي عينيك لمحت تاريخاً من الأحزان ...

آه ! هل كان يمكن لغير قلبك أن يمرض ؟ وأنت الذي كنت دوما قلباً يرتدي الثياب ويسافر ويحب ويكتب .

• • •

أليس قلب الشاعر هو قلب العصر ووجدان امته ؟ ..

ألا يختزل قلب الشاعر كل زلازل عصره وكل أوجاع أمّته وكل رؤاها ؟ ..

هل يدهشنا أن يهدد قلبك بالإضراب لكثرة ما حمّلته وحمّلناه ؟ ..

هذا إنذار يوجهه جسدك إليك ، مطالباً بأن ترحمه ! .

لا تصغ إليه . نعم أصغ .
نعم ولا .

* * *

اليوم ، حين شاهدتك هكذا أيها الأخ الكبير ، مقيداً إلى فراش المرض وأنت فرس غابات الفرح والعافية ، شعرت بقلبي يقرع مثل طبل جن صاحبه ، يضرب في جوفي بلا رحمة كجناحي طائر يريد أن يهرب عبر قفص ضلوعي وعبر النافذة كي لا يرى ... لأنه لا يريد أن يصدق ما يرى ...

اليوم ، حينما شاهدتك ، تمنيت لو أمنحك قلبي ! ولكن ما جدوى قلبي المثقوب بالأحزان مثل قيثارة لم تعرف غير أناشيد الوجع وصفير رياح القسوة والغربة ؟! .

قلبي الذي سطا عليه الألم ، وسرق من دهاليزه نجوم الفرح وعصافير البراءة ، وخلفه مضخة صدئة مسكونة بالضجر واللامبالاة ، والنزوات ؛
ما جدواه لك ولي ؟ ..

* * *

حين تقرأ هذه السطور ، أتمنى أن تكون كما عرفتك دائماً ، فرس العطاء والعافية ... وأتمنى أن تسألني باستخفاف : « أنا بخير . لماذا هذا القلق كله ؟! . »

وسأقول لك : « كنت أحلم . وانتهى الكابوس ! »

للقلب، صرخة بالابجدية
وللذاكرة، شمع أحمر

لا شيء يُرَسِّخ الأشياء في الذاكرة ويثبتها، كالرغبة في نسيانها.

— ميشيل دي مونتين —

لبعض الذكريات قوة الحقيقة المعاشة، وهي أكثر واقعية من كل ما يمكن أن يحدث لنا ثانية.

— ويلا كاثر —

ما كان احتماله صعباً، صارت ذكراه عذبة!...

— مثل شعبي برتغالي —

قد تكون الذاكرة هي الفردوس الذي لا يستطيع أحد طردنا منه، لكنها أيضاً قد تكون الجحيم الذي نعجز عن الهرب منه.

— جون لانكستر سبالدينغ —

١٩٧٣/١٢/٥

كتابات على دمعة

غرقت نظراته الخبيرة في عينيّ المرهقتين المسكونتين بالإعياء ، وبعد طول تأمل قال لي البروفسور طبيب العيون : « أريد منك إجراء تحليل لدموعك » !

كانت هذه أول مرة أسمع فيها عن « تحليل الدموع » . سمعت عن « تحليل الدم » وغير الدم ... أما الدمع ، فلا !

في الطريق نحو المختبر كنت خائفة . ماذا سيكشف لهم تحليل دموعي ؟

بل وكيف يحصلون على الدمع مني ، وأنا البخيلة به حتى في جزر وحدتي ؟! لقد انهار شيء في أعماقي منذ زمن ما ، وسد درب الدمع وطمس معالمه ، فكيف أبكي في مختبر التحليل إذا طُلِبَ إليّ ذلك ؟

ولكن ، لم لا ؟

إنها فرصة رائعة للبكاء بعد طول احتباس لمطر القلب ، وسأبكي دون أن أحمّل ضميري أو إرادتي أي وزر . تخيلت المشهد على الوجه التالي : سيقول لي الممرض « خذي هذا الأنبوب ، ابكي فيه واملئيه دمعاً » . سأنتهز الفرصة ، وسأبكي طويلاً طويلاً ... فهنالك لحظات في عمري مررت بها راكضة وقد أشحت بوجهي عنها ، وهي التي كانت تستحق مني أعواماً من البكاء — بكاء فرح أو بكاء حزن — فلأبكِ لأجلها دقائق على الأقل ، وبأمر من الطبيب ! سأبكي ... وحتى حينما يأتي الممرض ويقول لي أن الانبوب الذي ملأته بالدمع طاف ، فلن أرد عليه وسأملأ له إبريقاً من الدمع (ترى هل سيعطونني أنبوباً ملوناً مزخرفاً كتلك المدامع الأثرية القديمة ، كتلك التي أهداني إياها صديقي الشاعر المرحوم توفيق صايغ ذات مرة ، ولما سألته لماذا ، قال : «كي تبكي من أجلي ... سيأتي يوم تبكين فيه لأجلي » . وضحكت منه طويلا يومئذ ...

وحتّى يوم سرقه الموت ، ظلت « المدمعة » الهدية جافة ، فقد كان الدمع قد غاض في رمال قلبي المقفرة) .

* * *

ولكن الأمر كان أكثر بساطة في المختبر . لم يطلب إليّ أحد البكاء ، جاؤوا فقط بقطعة قطن ، وحكوا بها جفني فانهمر الدمع . نقطة واحدة كانت تكفيهم ، ولكنها لم تكن تكفيني ! وحين غادرت المختبر ، فرحت لأنها كانت تمطر ولم يكن في وسعي أن أوقف مطر الدمع في حنجرتي المالحة كمغارة محشوة بالشوك ...

* * *

قال لي الرجل : « تعالي بعد أيام من أجل نتيجة التحليل » .

وعشت أياماً شبه قلقة ... ترى هل سيقرأون ، في دموعي ، تاريخي كله ؟! تاريخ أحزاني كلها ؟ .. هل سيقرأون أيضاً أسماء ... وتواريخ ؟ ... وهل ستتراءى للمحلل ، تحت المجهر ، وجوه ووجوه ، وجوه أمسكت بها ، ووجوه راحت مني في زحام ذلك الزمن الحزين الهارب ؟ ..

هل سيقرأ في دموعي اسم دمشق ، مدينتي التي منحتني الصبا والعناد يوم ودعتها وقذفت بنفسي في مستنقع الغربة ؟

ذلك الرجل المكب بوجهه الآن فوق عدسة المجهر ، هل سيقرأ في دموعي حكايتي ، وهل يرتجف جسده ضحكاً مني ، من غباء أسميته « حباً » ، وانهيارات أسميتها تجارب ؟! . ترى هل ينبت الذين نحبهم داخل دموعنا ، وهل يسبحون في بحرها المالح كما الأسماك تسبح في أعماق المحيط ؟ .. ترى هل تسجل دموعنا زلازل أعماقنا وفواجعنا ، بحيث تبقى دوائرها مرتسمة ، هادئة حيناً وصاخبة حيناً ؛ كما يمزق الزلزال وجه مياه البحر ويترك فيها بصماته ... وهل ! . وهل ؟ .

* * *

وإذا زرع المحلل دموعي (كما يزرعون الدم ويحللونه) ، فوجه من سينبت فيه ؟ .. اسم من ؟ .. اسم « أين » ؟ .. اسم أية مدينة غير دمشق ؟ . ما لون الدمع تحت المجهر ؟ .. المحزونون مثلي ، هل يمكن لدمعهم أن يكون له غير لون الدم ؟ ..

ترى هل سيكون لدمعي صوتٌ تحت المجهر ؟ .. صوت شلال التمرد وصرخة الحرية والشهية إلى الحياة ؟ .. ذلك المحلل المسكين ، ألن تخيفه قطرة دمع واحدة من عيني بكل ما تختزنه من أهوال وحيَوات وجنون وأهواء ونزوات ؟ ... بكل ما فيها من لون النزف وصوت الاحتضار والولادة في آن واحد ... ورائحة لحظة التقاء الشروق بالغروب ، ساعة الذئب ؟

وإذا كانت دمعة واحدة تختصرني وتكتشفني تحت المجهر ، ألن ينطلق المحلل هارباً راكضاً في الشوارع وقد نبشت بجراحي جرحه ؟

* * *

في اليوم الموعود ذهبت لاحضار نتيجة التحليل . تخيلت انه سيدفع إليَّ بعدة مجلدات فيها حكايا عمري ، التي لا يعرفها أحد غير دمعي ! ..

وفوجئت بصفحة بيضاء ، وعبارة واحدة تتوسطها :

« الدمع خال من كل شيء » !!!

لم تذكر الورقة ، التي تحمل نتيجة تحليل دموعي ، أي شيء غير حساسيّي لاحد المركبات الكيميائية ... أما بقية « حساسيات عمري » فلم تلحظها .

ما أشد قصور العلم والمجهر والتكنولوجيا وأهله أمام قطرة دمع إنساني واحدة هي بحر من الأسرار ! لا ، لم تذكر نتيجة التحليل أية أسماء ...

أية حكايا ... أي توق ... أي هذيان ... أي جنون . أية سكينة . لم تذكر أية تواريخ ،

حتى ولا تواريخ كهذه مثلاً :

٥ حزيران ١٩٦٧ .

وغيرها .

٧٤/١/٢١

الغابات تموت منتحرة

عاما بعد عام ...

وأنا أكتب ، وقلمي يجرّح لحم الورق ، لم أستطع قط أن أنسى أن الورق كائن حي ... أن هذه الورقة التي أخط سطوري عليها كانت يوماً شجرة حية جميلة خضراء ، تمد قامتها نحو الشمس وتمنح أغصانها للطيور وظلها للأطفال والمتعبين ... ربما لذلك ، أجد صعوبة خاصة حين أضطر إلى تمزيق ورقة ما ، أو رميها في سلة المهملات ، وأشعر كأنني أسمع صوتها يشكو محتجاً أو متألماً ... وحينما أكتب (او اقرأ) أشياء مملة ، يخيل إليّ أن جسد الورق ما يزال حياً وأنه يتململ تحت الكلمات رافضاً محتجاً ... وحين أقرأ كلمات مأجورة أو عميلة ، يخيل إليّ ان الورق يحاول عبثاً أن يتملص من تحت الكلمات ، مطلقاً ساقيه للريح ، عائداً إلى غاباته الأصلية حيث النقاء والبراءة الأولى ، بل انني أرى للورق تحت مثل هذه المقالات وجهاً حزيناً كوجه غانية أرغم جسدها على عمله ، وظل قلبها يتوق إلى الانعتاق من قذارة واقعه ...

* * *

منذ كنت صغيرة وتعلمت في المدرسة أنّ أصل الورق شجر ، ومنذ كبرت وشخت وتعلمت أن للكلمة قدسيتها ، صرت أحس بنوع من الخجل والاحترام أمام الورق ، وربما بشيء من الاعتذار للشجر كلما تناولت ورقة لأخط عليها ... إذ ليس في التاريخ « مادة » انتهكت كالورق ، ليس في التاريخ جسد حيّ احتمل فظاعات الإنسان كالورق ... فعلى مر العصور كان الورق مستودعاً لأكاذيب البشر وحكايا مجازرهم ، وصار يستعمل وسيلة للاحتيال ، وضربت به الأمثال حتى قيل « حبر على ورق » : ولولا بعض العباقرة الإنسانيين أمثال ابن خلدون وشكسبير وبيتهوفن وغيرهم ، الذين كانوا يجيئون بين عصر وآخر ويربطون وجه الورق المحروق بالإنسانية والابداع ، لأطلق الورق على نفسه النار ولمات منتحراً ... (بل انني كلما سمعت بأن النار شبت

في غابة دون أن يعرف أحد لماذا ، يخيل إلي أنني أعرف ، وان الغابة قررت الانتحار ، وان ورقها قرر الموت كي لا يستغله الإنسان ويسخره) .

• • •

ربما لذلك كان يدهشني دوماً ان الورق أرخص من الذهب والمخمل والفراء ، وأرخص حتى من الجوارب النسائية ومناشف البحر والمظلات !

وربما كنت الوحيدة التي فرحت بارتفاع أسعار الورق (رغم ان زوجي ناشر) ، فقد شعرت بأن هذه « السلعة » بدأت تأخذ قيمتها المنسية منذ عصر ورق « البردي » إلى عصرنا ...

وحين قرأت منذ أسابيع في جريدة « الهيرالد تريبيون » انهم يفكرون جدياً في وضع أسعار الورق في بورصة السلع العالمية وفي الصفحات الاقتصادية كل يوم ، أسوة ببقية حاجات الحياة الضرورية والهامة كالقمح والقطن والمعادن والبترول ، شعرت بالغبطة ...

فإنساننا المعاصر ، الذي يقيم الأشياء — للأسف — بقدر سعرها المادي ، قد يكتشف فجأة عن طريق فواتيره ان الورق حاجة حيوية هامة ... وان الكلمة قد تكون رخصت في عصرنا لكن الورق قد ارتفع ثمنه ! وان الأكاذيب صارت تكلف نقوداً أكثر ... ومن يدري ؟! فقد يشعر لمرة أن الورق هو ابن النقاء والغابة — البراءة ، فلا يسكب على وجهه من سطور إلا ما يتآلف مع النقاء والبراءة !

١٩٧٣/١٢/١٠

تأملات أدبية في اختراع علمي !

مثل إصبع ديناميت ، انفجر في رأسي خبر قرأته في إحدى المجلات العلمية المستقبلية التي أهوى مطالعتها . يقول : تم اختراع طريقة لنقل الذاكرة من شخص إلى آخر ... فقد استطاع أحد العلماء إثبات أن الذاكرة سائل دماغي . وأن نقله من شخص وحقن دماغ شخص آخر به ، يؤدي إلى اكتساب الشخص الآخر كل ذاكرة الأول صاحب السائل ...

الفكرة أكثر إثارة من هبوط أول إنسان على سطح القمر ...

فقد كان دماغ الإنسان منطقة محرمة على جميع الناس ، كل إنسان إشارة استفهام متنقلة . دماغه صندوق مقفل لا أحد يستطيع اقتحامه . كل ما نعرفه عن الآخرين هو ما نراه من سلوكهم الخارجي ، وكل ما نفهمه منهم هو ما يطفو على سطح العلاقات العامة والخاصة من كلمات وأفعال ... لقد اقتحم الإنسان القمر والذرة ، ولكنه ظل عاجزاً عن اقتحام ذلك الصندوق المغلق المسمى بالدماغ ... لقد استطاع الافلات من الجاذبية الأرضية والدخول في الفضاء الخارجي . ولكنه ظل عاجزاً عن الدخول إلى الفضاء الداخلي لإنسان آخر ... رواد الفضاء وعلماؤه الذين انتهكوا حرمة (المجهول المسحور) الذي كان اسمه قمراً ، ربما كانوا اليوم يعرفون عن أسرار الكواكب ومداراتها ، أكثر مما يعرفون عما يدور في الرؤوس المغلقة السرية لحبيباتهم وزوجاتهم وزملائهم في العمل ...

ذاكرة الإنسان ، تلك المنطقة المحرمة الكبرى ، هل استطاع العلم أيضاً النفاذ إليها بإبرة صغيرة تمتص عوالمها بكل بساطة ؟ ...

• • •

لقد ظلت ذاكرة الإنسان طيلة دهور مثل صندوق « باندورة » ، نفضل إغلاقه

ونسيان ما فيه على المغامرة بفتحه وإطلاق ما يحويه من أسرار ، سرية حتى الشر ، منسية حتى الوجع ... إن أحدا في هذا العالم لا يعرف حقاً انساناً آخر ما دام لا يعرف حقاً ما يدور داخل ذلك الصندوق السحري المغلق بإحكام — أكثر من أية معلبات متقنة الصنع — المغلق منذ البداية بختم الـ * « Privacy » . بل ان الإنسان نفسه يكاد يجهل أحياناً ما يدور داخل رأسه هو ، في ذلك الصندوق الدماغي المحكوم بحمله المسمى بالذاكرة ، والبعض يقضي بقية عمره كي يفك ألغازه ضارباً باب « دلفي » بأصابع دامية مكسورة الأظافر . وفي الأعلى عبارة سقراط « اعرف نفسك » ... ولكن كيف ؟ ... وتلك الذاكرة القاسية ، التي لا تنسى شيئاً ، وتتواصل مع اللاوعي تسكب فيه من وعائها بلا انقطاع ، وتهجر العقل الواعي لأنه سيحلل ويرضى ويرفض ويحكم بالاعدام على بعضها ... آه كم تخشى الذاكرة العقل الواعي ، لأنه حيادي وواع ومتزن ومتفهم لشروط الدنيا الموضوعية ، وكم تلجأ الذاكرة إلى العقل اللاواعي . ذلك « الوسواس الخناس » اللامبالي بكل المواصفات الموضوعية للعالم الخارجي ، ذلك الذي يبث رسائله عبر الكوابيس والأحلام حتى يُسكت عقلنا الواعي صوته ؟ ...

* * *

الذاكرة ،

تلك التي نتحالف والزمن والآخرين على طمسها ، ماذا يحدث حين يستطيع عالم ما استخلاصها من براثننا ، وبراثن سرية صندوقها الأزلي المقفل ؟ ...

وإذا امتصت إبرة العلم ذاكرة طفل ولد للتو ، وزرعت ذاكرته على شاشة دماغ إنسان كبير يستطيع أن يعبر عما يعلمه ، هل سينقل لنا صورة عما عاشه الطفل في الرحم ؟ الدفء والظلمة اللزجة الحنون ، وهل ، وهل يقول لنا شيئاً عما « قبل ذلك » ؟.. أليس حلم الكتاب والفنانين جميعاً أن يلتقطوا ولو برقية وحيدة عما حدث «قبل ذلك» ؟ ... ألم يقل الشاعر الرائع «ووردثوورث» ان الفنان هو طفل لم يفقد ذاكرته نهائياً... وهو بالتالي ما زال قادراً على التواصل مع قوى ما وراء الطبيعة ، وأسرار الوجود ، وعلى رؤية الأشياء بعين

• استعملت العبارة الانكليزية لعدم وجود مرادف عربي لها ، وعبارة (العزلة) أو (السرية) ليست دقيقة ، ولعل السبب في عدم وجود عبارة عربية لها يرجع إلى عدم وجود مفهوم للـ(Privacy) عند العرب ، تماماً كعدم وجود مرادف أجنبي لكلمة « طرب » العربية !

جديدة في آن واحد ؟ ... ماذا يحدث لنا لو تكلم طفل لحظة ولادته ، أي لو نطقت المعرفة المطلقة والعبقرية الكلية ؟!

* * *

وإذا امتصت إبرة العلم ذاكرة شهيد مات للتو ولم يزل دماغه حاراً ، شهيد عظيم كغسان كنفاني مثلاً ، ألن يتطوع الملايين ليحقنوا بذاكرته . ولتكون حناجرهم صوتاً لتلك الذاكرة الخالدة ، وليعيدوا تاريخ نضاله وحياته الغنية بالحب كما تعيد ابرة الحاكي بكل فخر إحدى مقطوعات بيتهوفن ؟ .. وهل يمكن لمن امتلك ذاكرته إلا أن يتابع دربه وحياته ، وليكون من جديد كل ما كان من قبل فيها ؟ ...

وبدلا من « نقل الدم » ، سنسمع الكثير عن « نقل الذاكرة » ...

كثيرون سيتطوعون لنقل ذاكرتهم ، مجاناً ! ... ما أكثر الذين يتمنون لو يفقدون ذاكرتهم ليستريحوا ... فداخل ذلك الصندوق المغلق ، تفرقع سياط الوجع . وتفور أسراب نحل الماضي ، وتلسع وتلسع . كثيرون سيتبرعون بذاكرتهم . ولكن من يرضى بأن تنقل له ذاكرة إنسان آخر ؟ ... من يرضى مثلاً بأن تُنقل له ذاكرتي أنا . وإذا امتصت الإبرة ذاكرتي ، وزرعتها في دماغ إنسان آخر . دفعة واحدة وبلا نقصان ، وبكل ما فيها من وجع وتوق وأحزان وجنون ووجوه ممزقة وأحلام مشردة وشهية للفرح ونزوات مجنونة وأسرار وأسرار ، ألن يجدوه في اليوم التالي منتحراً ؟

* * *

ترى ما لون سائل الذاكرة ؟ وهل لذاكرة الناس جميعاً اللون نفسه ؟ ... هل يمكن أن يكون لون ذاكرة بيتهوفن الإنسان مثل لون ذاكرة هتلر ونيرون مثلاً ؟ .. الذين يفورون شوقاً للحياة والعطاء أي الثوار والعشاق ، هل يمكن لذاكرتهم إلا أن تكون كسوائل البراكين منصهرة ونارية ؟ ... وحينما نموت ، أتموت ذاكرتنا معنا ، أم تراها تتابع حياة مستقلة بها ؟ تحل في كائن آخر ، أو تنتقل إلى التربة والريح والليل ، وتصب في نسغ الكون لتساهم في ايقاعاته الخفية ؟ ترى هل النجوم هي ذاكرة العشاق ، وكلما مات عاشق تخثرت ذاكرته في السماء نجمة تضيء ؟ ...

وحينما يموت الشهداء ، ألا تنتشر ذاكرتهم في نسغ الأرض والأطفال كما ينتشر الثلج في القرى ؟ ...

الذين لم يعرفوا الحب أبداً ، الحب للوطن وللمرأة وللحياة ترى أفي أدمغتهم « سائل ذاكرة » على الاطلاق . أم أن ابرة الطبيب ستخرج من أدمغتهم فارغة خاوية بقدر ما كانت حياتهم خاوية من نبض العطاء والحب والانتظار والألم ؟ ...

النواسيو المزاج ، المتعددو العطاءات ، إذا انكسر أنبوب سائلهم الدماغي وتساقطت قطراته على الأرض ، ألن يكون له لون قوس قزح وتنبت الأزهار في موضعه بوحشية كما في الأرض الاستوائية ؟ ...

الرافضون لالقاء القبض على حقيقتهم . الزئبقيو المزاج . ألن يتبخر سائلهم الدماغي ويختفي لحظة يغادر مغارته السرية في رأس صاحبه ؟ ...

* * *

وهل يتم تكريس هذا الاختراع العلمي العظيم للدمار ، كأن يخطف الثوار والأبطال مثلاً وتسرق ذاكرتهم ؟ وينتهي عصر الجواسيس وماتاهاري ومؤسسات ال« C.I.A. » بابرة نحيلة دقيقة سريعة كالأفعى ، حيادية كالصمت ، شرهة الامتصاص كالعلق ؟ ويتم فك عقد الألسنة بأسرع مما تستغرقه حالياً عمليات التعذيب ؟ ... وهل نسمع بجائزة « زرع الدماغ » كما « جائزة نوبل » للتكفير عن هذا الاختراع الجهنمي ؟ ... وهل نسمع بأن رجلاً تقدم بشكوى لأنه تعرض لسرقة ذاكرته أي لسرقته هو كإنسان ؟.

والزوج الذي يشك بزوجته (أو العكس) هل يقدر على استصدار حكم يقضي بنقل ذاكرة زوجته إليه ليعرف كل ما كان وما قد يكون ؟ ...

وهل يفرض البعض في وصاياهم على الورثة نقل دماغهم إليهم مع المال ، وبهذا ينتفي حلمنا بجيل جديد يستعمل أدوات السابقين وامكاناتهم لخلق عالم جديد ؟ ...

وإذا ، إذا جاء مجنون تاريخي ما مثل هتلر ، احترف مثلا سرقة أدمغة شعب ما كشعبنا ، ونقلها إلى تربة كوكب آخر بعيد ليتخلص من تاريخنا الذي يحركنا ، ألن تنبت أحزاننا فوق ذلك الكوكب أشجاراً من الزيتون المضيء ؟ ألن تلف الكوكب أحقادنا مثل عاصفة من نار ، ويهطل فيه كبت تاريخنا مطراً من دم وصواعق ؟ ...

* * *

والحب ...

أليس الحب محاولة للتواصل بين ذاكرتين ومزج عمرين ؟ أليس محاولة لإيجاد لغة مشتركة بين ماضيين شبه ممزقين ، نصف منسيين ؟ ...

هل تستعيض العصور المقبلة عن الحب بإبرة تمتص ذاكرة كل من (العاشقين) . تمزجها ثم تعيد نصفاً متمازجاً إلى كلٍ من دماغ (الحبيبين) ، ويتم الأمر في ربع ساعة على يدي طبيب مدرب يرتدي الروب الأبيض وتفوح منه رائحة المبيدات للجراثيم ...

ولكن ، ماذا يحدث للانتظار ؟ ... والذي يجيء لا يجيء ؟ ماذا يحدث لساعات الحوار الحميم بين الغرباء . ساعات الهمس واللاهمس وعبارات الشهية إلى مزج الذاكرة ؟ ماذا يحدث للمرأة المرتدية السواد . الحاملة لذاكرتها السوداء مثل المزيج الذي يغلي في قدر الساحرات . وللرجل الذي نسي وجهه الحقيقي أو تناساه ؟... ماذا يتبقى لهما حين ينطفىء التوق إلى التخابث والعبث ، وتحل إبرة الطبيب محل اللقاءات الخاطفة ، والاعترافات على ضوء الشموع ، والهمسات المسروقة تحت أول زخة مطر خريفية ؟ ...

وهل ينتفي دور الكاهن . ويتم الزواج على يدي طبيب « مزج الذاكرة » ، ويموت الغموض المحبب تحت وخزة الابرة الحاذقة في المكان المعين من الدماغ حيث الذاكرة ؟ ..

* * *

يقول الشاعر أراغون لحبيبته إلزا : « عيناك عميقتان حتى انني أفقد فيهما ذاكرتي » ...

يا لرعب العصر القادم ، الذي سيستبدل عيون إلزا بإبرة فولاذية معقمة ! ...

أم ان « تأميم الذاكرة » على هذا الكوكب هو الحل ؟

١٩٦٨/١١/٢٩

عالم بلا قلب

أمام المرآة تخلع ثيابها . عملية تمارسها أية امرأة آلاف المرات . هي أيضاً ، طيلة أعوامها الستة والعشرين مارستها غالباً بآلية رتيبة .

ولكن الأمر مختلف هذه المرة . تخلع ثيابها وعيناها تومضان بشرر شيطاني دامع ، بلعنة تصميم مقدس ...

بمخاض أفعى تخلع جلدها لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها .

انها لا تخلع ثيابها بالضبط ، بل انها تخلع أعضاء جسدها عضواً بعد الآخر إلى الأبد في وداع حاسم مرير ... انها تخلع عنها شرنقة الحياة ولعنة القلب لتطير منها فراشة هاربة من الألم .

عارية . العروس عارية . العريس سكين . السكين تقطع شرايين الرسغ بهدوء . الدم الذي ظل يغلي داخل رأسها وجسدها طيلة أشهر يتفجر إلى الخارج ... الغرفة باردة وموحشة ، وتقع في فندق بارد وموحش ، يقع في مدينة باردة وموحشة ، في عالم بارد مظلم وموحش ... والرجل الذي كان مدينتها وشمسها ومنارتها قد مضى ... ليس هنالك ما تأسف لأجله .. تشعل لفافة .. تملأ (البانيو) بالماء الساخن ، وترتمي فيه وتدخن ...

ثم ، لا شيء ... الموت المحتوم ودفعة واحدة . وخبر آخر في الصحف قرأته وسواي عن امرأة انتحرت لأنها أحبت ... لأن القلب الإنساني الذي أسماه شكسبير بـ « جولييت » ، (الصحف ذكرت اسم كارولين) ما يزال ينبض بالطريقة نفسها منذ قرون ، وحتى في عصر الإنسان الآلي ، وسفن الفضاء والقنبلة الهيدروجينية . الخبر يذكر التفاصيل ... ما الفرق ... اسمها لا يهم . الحكاية متشابهة ، تصادف ان

جولييت هذه المرة ألمانية ، وان حبيبها أردني ... والفندق في بيروت . الزمان : أول البارحة .

* * *

أتابع قراءة جريدتي بينما تسقط الطائرة التي أنا من بين ركابها في بئر من الغيوم ... أقرأ (سقوط طائرة ومصرع ركابها الثمانين وملاحيها !) ...

أضحك للخبر .

لا أتمسك بمقعدي (ما الفرق ؟ سيحدث ذلك في لحظة ما ، في مكان ما ، أن أستحيل وردة من دم ممزقة على اسفلت شارع من شوارع بيروت كقطة دهستها العجلات ، أو أن أموت في فراش وثير وحولي الصحب والخلان كما ماتت الملكة فيكتوريا ، ما الفرق ؟) .

أتابع قراءة جريدتي « ٣ كانون الأول ١٩٦٧ ، من لا يذكر هذا التاريخ ؟ ... »

أنا لا أذكر هذا التاريخ ، ولا يهمني أن أذكر شيئاً . (**تواريخ نكساتنا ونكباتنا صارت أكثر من تواريخ أعيادنا...فلتكن ذاكرتي أداة للنسيان).** . ٣ كانون الأول هو التاريخ الخطير لحدث ما في نظر الصحافة ... أي منذ عام ... اذن ، أيام وتحتفل بذكرى أمر خطير ...

ما الحكاية ؟ لذا أتابع القراءة « انه تاريخ أول عملية زرع قلب في العالم ! . يومها زرع الدكتور برنارد في صدر مريضه بلايبرغ قلباً (جديداً) ، بالاحرى عضلة ضخ جديدة ... يومها أعلن : متوسط عمر الانسان الذي يبتغيه طب زرع القلوب هو ١٥٠ عاماً كمرحلة أولى . بلايبرغ يريدون له أن يعيش ١٥٠ عاما » ...

من المفروض أن نقبل على قراءة الموضوع باهتمام ، واعجاب بعبقرية الطبيب ونصره الانساني (كما هو من المفروض أن يشعر أي قارىء سيعيش ١٥٠ سنة بفضل برنارد ... تصفيق .)

لو ...

لو لم تقع عيني على الخبر المجاور ... والمجاور ... وعلى الجانب الثاني من الصفحة ... وفي جريدة جاري ...

* * *

أتابع قراءة كل ما يحيط بهذا الخبر النصر من أخبار هزائم الإنسانية على أكثر من صعيد ... فيبدو لي بعدها انتصار الدكتور برنارد مثل محاولة ناجحة لتضميد اصبع مصلوب ! تضميد اصبع انسان نسف بيته في القدس بعد أن كان قد قتل في فيتنام ، بعد أن كان قد مزق قلبه غدراً وأسمي غيفارا في مكان ما من العالم ، بعد أن كان قد أعدم رمياً برصاصة تخترق قلبه في الجزائر ، وكان قد احترق قلبه في ثانية كالجمرة في هيروشيما أيام الحرب العالمية الثانية ، وقبلها كان قد أعدم خطأً في الحرب العالمية الأولى ، وتجمد قلبه على ثلوج روسيا الشاسعة وكان يومها يرتدي أوسمة نابليون ...

وأيضاً قبل أن يضمد له الدكتور برنارد جرح أصبعه (مشكوراً) ، كانت قد داست قلبه خلال عصور مركبات هولاكو وجزمات القياصرة ، وصخور اهرامات فرعون ... وما تزال ... وما تزال ... بطريقة أو أخرى ما تزال .

التهنئة بانتصار برنارد العلمي أحسستها في وسط الأخبار الباقية مثل نبتة في مستنقع مسموم ...

فإلى جانب عناوينه وصوره ، أطلت عناوين مقال عن « وسائل التعذيب التي تتبعها إسرائيل في فلسطين المحتلة » ... **(وهجمت إلى عيني آلاف الصور ... بيوت تنسف ... رجال يُرمى بهم إلى الليل والعاصفة والمجهول في مخيم ما) ...**

أطلت عناوين مقال عن الحرب الفيتنامية (وهجمت إلى رأسي صور آلاف من الجثث المشلوحة في العراء على طول أعوام ، بدمها المخثر على جراحها المفتوحة تحت القمر البارد المذهول) ...

* * *

... وسقطت في بئر بلا قرار . بئر اسمه تاريخ الإنسان . أسقط . تنهمر فوقي ملايين الأجساد الممزقة ، تضرب وجهي آلاف الاطراف المقطوعة ، التي ما زالت تقبض على بنادقها ، وسيوفها ، وهراواتها ، ونبالها، ورماحها ، وأسلحتها الحجرية .

(هجمت إلى رأسي صورة « نوبل » العالم الذي اخترع الديناميت ، ثم كرس . ما جمعه ليكفر عن اختراعه الفتاك : جائزة نوبل للسلام ، أي جائزة لمن يسكب برميلاً من الماء على برميل البارود الذي اخترعه) ..

تابعت قراءة الصحيفة .. جرائم . افلاس . فشل . بؤس . مجاعات ، بؤس . بؤس . بؤس .

لو صدرت صحيفة منذ ٣٠٠٠٠ سنة في الغاب ، هل كان يمكن لها أن ترسم واقعاً إنسانياً أشد وحشية ؟

كتابات الإنسان على جدران مغاوره الحجرية ، على أوراق البردي ، على هياكل أورشليم وبابل ، هل روت قط مآسي جماعية مروعة كهذه ، وكالقتل الفريد للإنسان الذي يمتاز به عصرنا ... حيث يتم اغتيال إنسانية الفرد ، فيموت الإنسان دون أن يكف قلبه عن النبض . بل انه يموت مرات قبل أن يكف قلبه عن النبض بأعوام طويلة طويلة ... يعيش خلالها — دون أنَ يحيا — عبداً لمؤسسات تحتكر انسانيته ، ويصبح جسده تابوتاً متحركاً ، ينزلق كالشبح في الشوارع الشاحبة لمدن أصابتها لعنة العصر ...

* * *

أي هول ، يا أخي الإنسان ، أن تقرأ جريدة !! ...

أعني ، أي هول ، أن تقرأها ذات يوم بعين جديدة ، هي عينك الثالثة المختفية داخل جمجمتك — أظن أن البعض أسماها البصيرة — .

... وانسان العصر أوديب فريد المأساة ، فهو ينظر ولا يرى ، ويرى ولا يبصر ، يا للهول ، لقد سملوا عينه الثالثة (البصيرة) ! .. ولذا صار قادرا على أن يقرأ جريدته كل صباح دون أن تصعقه مرة واحدة ويرمي به توترها قتيلاً ، أليس فيها من الشحنات والمآسي أكثر مما في كرسي الاعدام الكهربائي من شحنات ؟ ..

البصيرة ؟ أسموها تارة بالوجدان وتارة أخرى بالقلب ...

البصيرة . أثبت التاريخ أن سملها ممكن ، لكن ابادتها مستحيلة .

* * *

« دعوا والدي يموت بسلام » ، هكذا صرخت ابنة صاحب القلب المزروع « بلايبرغ » ، في أنامل الدكتور برنارد التي صممت على أن تصيبه بلعنة البقاء في هذا العالم ١٥٠ سنة !! ...

أستعير كلماتها ... « برنارد ، دع الإنسان يموت بسلام » .. أضيف إليها :

ليس المهم أن تزرع قلبا في الإنسان .. المهم أن تزرع الإنسان في هذا العالم .

الحاوي برنارد .

ما جدوى أن تزرع للإنسان عضلة القلب ، ما دام يعيش في عالم هرم بلا قلب ، في عصر عجوز البؤس بلا قلب ! هذه المرأة الالمانية المنتحرة ، ليتك تستطيع أن تزرع قلبها في ضمير امتها .. قلبها الذي أحب ذلك الاردني الذي تشارك بلادها في دفع ثمن رصاصة لقلبه !

اطالة الحياة ، ليست بالضرورة في اطالة العمر ... انما هي في (تقصير) أمد تعاسة الإنسان ، أو في محو أسبابها . الا ترى معي ان الذين ينقذ العلم حياتهم (بالمفرق) ، يتم قتلهم (بالجملة) في الحروب المعاصرة ؟

مأساة الإنسان لا تحلها عدة سنوات تضاف إلى تاريخ مولده ، وانما تحلها اضافة البعد الثالث الإنساني إلى سنوات حياته أياً كان عددها ...

برنارد ، اطفىء شمعة العيد الأول لاختراعك ، ونكسها راية هزيمة .

لماذا ؟

تعال معي إلى مقبرة ما .. مقبرة تقع في المستقبل ، أية مقبرة في أية مدينة بعد قرن . سنقرأ على رخامها : هنا يرقد فلان عن عمر ناهز المئة والثلاثين . قتل في الحرب العالمية الثالثة ...

برنارد ، لو أن شواهد القبور تحمل الأعوام الحقيقية التي عاشها صاحبها فعلاً ، أو بالمعنى الإنساني للكلمة ، لما حملت شواهد قبورهم (أولئك الذين قد يعيشون بفضلك عشرات من الأعوام) أكثر من أشهر عديدة من (الحياة) الحقيقية لا (العيش) الحسابي ... سنقرأ : هنا يرقد فلان عن عمر يناهز المئة والعشرين بفضل برنارد لكنه مات مقتولا في شرخ شبابه هذا ، اذ اغتاله النظام الاستهلاكي لبلاده ودمر روحه عدة مرات ريثما أجهز عليه فيما بعد إنسان آلي لخلل مفاجىء في بطاريته ! وقد عاش من الـ ١٢٠ سنة تلك ثلاث سنوات فقط إذ أحب خلالها يقيناً ما ، فخفق بذلك قلبه غير المزروع ، (البصيرة ، الوجدان) .

• • •

العلم سلاح ، أي أداة . تأليه العلم مأساة . استعماله واستخدامه هو الأهم . ان يظل عبداً ووسيلة ، بندقية تطلقها الإنسانية في حربها ضد الغاب ، بدلا من أن تحولها إلى صدرها وتنتحر بها ...

العلم صيدلية ، تستطيع عقاقيرها أن تشفي وأن تقتل . قبل أن يصرف لنا برنارد (وصفة) لمداواة عمر الإنسان كمياً ، أي عددياً ، تقف أجيالنا الإنسانية الممزقة أمام صيدليته منذ عصور باحثة عن الدواء الذي يجعلها **(تحيا)** انسانياً ، سنوات **(عيشها)** الكمية تلك ...

* * *

برنارد ،

اذهب عنا ، لسنا بحاجة إليك في عصرنا هذا ، عصرنا المتخم بالرقي العلمي ، المصاب بفقر الدم والهزال الانساني .

لا نريد (قلبك) المزروع ، نريد من يزرع الحياة في قلوبنا — مهما قصر أمد خفقاتها — ، نريد من يزرع فيها ما أسماه (برنارد) جاء قبلك بثلاثة آلاف عام وكان اسمه **أفلاطون** : « **تلك الغبطة العزيزة على القلب** » ، وما أسماه براوننغ : « **ايجاد معنى للحياة ، وغاية ، هو طعام قلبي وشرابه** » وما أسماه ليوناردو دافنتشي « **أنبل غبطة تضيء القلب ، غبطة الفهم** » ... شكسبير قال : « **أن تكون أو لا تكون ، تلك هي المعضلة** » ... وهذه لا تتوافر للإنسان إلا في عالم انقرضت منه شريعة الغاب وريثما يتم ذلك ، فإن إطالة أجل حيواناتها أو تقصيره ، لا علاقة له **بتعميق البعد الثالث** الأهم للحياة ، البعد الإنساني ... وأنت الذي تعرف كل شيء عن عضلات القلب وصماماته وأعصابه وشرايينه ، لا تعرف عنه سوى (القلب العضلة المضخة) ... **ليس بالمضخة وحدها يحيا الانسان .. وآبار أعماقه بحاجة إلى من ينضح منها عتمتها ، ويخرج من دهاليزها الجماجم والمآسي المتراكمة طيلة عصور ..**

* * *

برتراند راسل ، فيلسوف السلام شبه الاعمى ، المرتجف اليدين يعرف كيف يزرع لعالمنا الوحش قلباً إنساناً أكثر مما تشفي أناملك الرشيقة ، بينما تزرع مضخة جديدة في قلب إنسان يمزقه أنه محكوم بأن يكون إنساناً محكوماً بالاعدام مع تكرار التنفيذ .

فليصفق لك عالم عصر الذرة ، ولتهتف بحياتك مظاهرة تتحالف فيها حنجرة الرجل الآلي بقلبه البطارية ، مع حنجرة بقايا الإنسان المنقرض ، رجال ، أجسادهم توابيت متنقلة تحركها عضلة ضامرة اسمها القلب **أيام كان الحيوان البشري إنساناً** .

ولست وحدي التي أنظر اليك مشفقة على عصري منك .. « ميتيا » في الاخوة كرامازوف يصرخ بلسان الملايين عبر ريشة ديستويفسكي : **أنا أحد أولئك الذين لا يريدون ملايين من النقود أو الأعوام ، بل انما يرغبون في ايجاد أجوبة لأسئلتهم ، ومنارات لوجودهم** .

* * *

برنارد ، هل قرأت (جحيم) دانتي ؟ أليست (جهنم) التي يصفها أقل فظاعة ووحشية مما يلقاه الإنسان في معتقلات التعذيب وساحات الحروب والسجون وأقبية المستشفيات ، وتحالف العلم والقدر ضده في عصرنا العجيب ، الذي استطاع انسانه أن يتحرر بسفينة فضاء علمائه من الجاذبية الأرضية ، ولم ينجح في تحرير انسانيته من منطق الطين !

برنارد ، احمل ملاقطك وقفازاتك ومشرطك واركب سفينة د . ش . ويلز ، سفينة الزمن ، وارحل بها عنا إلى العصور البعيدة السعيدة الآتية يوم ينجح الإنسان في زرع قلب لهذا العالم .

ولكن ، هل يمكن لمثل هذا العصر أن يأتي ؟ ..

برنارد . لا . قبل أن تلملم أدواتك الطبية وترحل ، اسمع ، لماذا لا تفكر باختراع **جراحة لاستئصال (القلب الوجدان) بدلاً من زراعة القلب المضحكة ؟!** ...

٧٤/١/١٤

موت رقم ١

اليوم اشتريت مفكرة للعام الجديد ...

أحزنني ذلك كثيراً ... شعرت بأنني أشتري كفناً ... كفناً لحماس الأيام القديمة ، أيام كان كل ما أقوم به مليئاً بالرغبة في ادائه والشهية للقيام به ، وبالتالي كنت معصومة عن النسيان لأنني كنت أنتظر بلهفة حلول مواعيدي كلها ...

نشتري مفكرة دون أن نلحظ اننا نشتري جزءاً من قبرنا ... فكل لحظة موت للحماس هي موت جزء منا ، هي موت بعضنا ...

انك لا تستطيع أبدا أن تنسى موعداً أو عملاً ترغب رغبة حقيقية وكاملة في تحقيقه ... انك تنسى ما لا تحب بكل جوارحك ، وما لا تؤديه الا بفعل ضغوط شبه خارجية ... وهكذا تتحول الذاكرة الى أداة للنسيان كي تحمينا من أنفسنا !

ويوم تشتري مفكرة للمرة الاولى تكون قد دفعت القسط الأول لكفنك . فنحن لا نموت حقاً مرة واحدة ، وانما نموت بالتقسيط ، نموت موتاً بطيئاً لا نلحظه وقلما نتوقف عنده ، نموت باستمرار ... وقد نسمي موتنا هذا نجاحاً ، وازدحام مفكرتنا بالمواعيد مع الأسماء اللامعة و (الهامة) انتصاراً ! ..

اني أشتري مفكرة هذا العام بكل خجل وأسى ... فقد صرت نهائياً في حاجة إلى تسجيل ارتباطاتي كلها ... ألا يعني هذا اني غير مرتبطة « حقاً » بأي شيء ، وان حقيقتي تطير بعيداً بعيداً عن التزاماتي ، مثل منطاد تاه في الفضاء بعد أن أفلتته من زمان يد اليقين والحب ، وعبثا تستعيده ؟! .

أشتاق ، أشتاق لأيام تكون مواعيدي فيها مثل نجومَ في ليل عمري ، أرصدها ، وأرقبها ، وأنتظرها ، وأحفظ جيدا أوقاتها ... ولا أؤدي الا ما أتوق اليه بكل جوارحي وطاقاتي وذاكرتي . أشتهي أسبوعا تكون مواعيدي خلاله وشماً لا يمحى في ذاكرتي ،

وأن يعود لكل يوم لونه المميز وطعمه وانتظاره الخاص . اشتهي عودة الحماس إلى قلبي (ولو أسبوعاً واحداً أموت بعده ، وأشتهي ذلك مثل شهية حزمة من الديناميت إلى انفجار كامل !) .

والأصدقاء الاحباء أو الغرباء الذين يهدوننا مفكرة العام الجديد ، ألا يشعرون انهم يهدوننا بعضا من قيودنا الذاتية ، بعضا من وسائل تدجيننا ، مطرقة لتطويعنا فوق سندان « الزمن » ونار الالتزامات الاجتماعية واليومية ؟! .

صباحاً اشتريت مفكرة للعام الجديد ...

ومساء أحرقت مفكرتي ...

... فاغفروا لي أيها الرفاق إن نسيت مواعيدي معكم ! ..

إني في حاجة إلى موعد مع ذاتي ...

ولن أخلف موعدي مع ذاتي بأي ثمن ،. أنا التي اخترت منذ البداية أن أخسر العالم كله على أمل أن أربح نفسي !

تأملات شبه نرجسية حول كتبي

لحظة تنتهي من كتابة أحد مؤلفاتك ، تعرف جيداً أنك قد مت.. ولكن أحداً لا يعرفُ أنك ميت .كل ما يلحظونه هو سلوكك غير المسؤول الذي يتلو حسك العظيم بالمسؤولية أثناء الكتابة .

— همنغواي —

الكتابة مهنة التوحد والعزلة . الأسرة ، والأصدقاء ، والمجتمع هم الأعداء الطبيعيون للكاتب. إنه بحاجة إلى أن يكون وحيداً،لا يقطع أحد عليه عمله..وهو يصير متوحشاً بعض الشيء إذا أرغم على كبح جماح كتابته .

— لورانس كلارك باول —

أعدْ قراءة ما كتبت ، وإذا أعجبك مقطع ما بصورة خاصة إعجاباً شديداً ، فاشطبه !

— صموئيل جونسون —

١٩٧٣/١١/٩

« حب » .. الكلمة الملعونة ! !

الحب ليس نقيضا للثورة .

الحب ليس نقيضا للحس بالمسؤولية ، وليس نقيضا للجدية في مواجهة قضايا الحياة .

وبعد هزيمة الخامس من حزيران نشأ تيار نقدي يصنف الادباء والشعراء والكتاب الى نوعين : كاتب حب وامرأة ، وكاتب وطني . وحين تجرأ أديب مبدع ، سبق له أن كتب عن الحب ، على أن يخط سطوراً يحملها حبه للأرض وللوطن وحسه المرير بالهزيمة ، قامت قائمة النقاد ، لا لأن حروفه جيدة أو رديئة ، وانما لمجرد أنه تجرأ وكتب عن الأرض بعد أن دنس قلمه بالكتابة عن الحب ! كأن ثوار العالم كلهم الذين نسمع بهم نذروا العفة ! كأن ملايين الرجال الذين قتلوا في الحروب هم مصابون « بالعجز » أو هم من صنف لا يقرب النساء ! والغريب أن العرب ، في غابر عصورهم ، لم يكونوا على هذا القدر من ضيق الافق النقدي و « العجز » الفكري ، وقد استطاع أجدادنا أن يفهموا جيداً نموذج عنترة المقاتل والعاشق ، فلم يوجهوا إليه تهمة الخيانة العظمى لأنه تحدث عن الحب في زمن الحرب ، ولم يرجموه لأنه حمل في عينيه صورة حبيبته إلى ساحات الوغى ... وجه حبيبته كان مقبض سيفه .

الدعوة إلى الحب جزء من الدعوة إلى تحرير النفس العربية مما علق بها عن مفاهيم مغلوطة تشوه انسانيتها وتعوق تفجير طاقاتها . وعلينا أن نتذكر من جديد أن جميع المقاتلين العظماء كانوا عشاقا عظماء ، وان نابليون كان يكتب رسائل عشقه الخالدة بالبارود بين معركة وأخرى ، وانه من الضروري تحرير مفهومنا « للشاعر الوطني » من فكرة سطحية هي « الرهبنة » العاطفية والجسدية . فالشاعر العظيم هو إنسان عظيم ، والإنسان العظيم هو القادر على ممارسة نواحي انسانيته كلها والتعبير عنها دونما خجل .

ولكننا نحب أن نضع الناس والكتاب في أدراج . نصنفهم ونستريح . هذا أديب مقاومة ، وهذا أديب المرأة ... ان ملاحقة اتساع النفس الإنسانية وشمولها ، وواقعها البشري الجميل ، هو فوق طاقتنا على الاحتمال . وأعتقد بأن تاريخ الادب العربي سيذكر بكثير من الدهشة والسخرية ان نقادنا أرادوا توزيع المهام على الشعراء مثلاً وإلصاق بطاقات تحديد لمواهبهم : هذا شاعر حرب . هذا شاعر هزيمة . هذا شاعر حب . هذا شاعر نصر . هذا شاعر حزيراني . وهذا شاعر تشريني . إنها لمهزلة ، ومتى نكف عن الوقوع في الفخ نفسه ؟؟ ...

* * *

« حب » ... كلمة مجيدة ..

وقررت أن أسمي كتابي الجديد « حب » ... وحين أعد لي ناشري* ، غلافاً للكتاب رسمه فنان مصري كبير قلت له : « انه جميل ، لكنه لا يجسد فكرة الكتاب عن الحب . فصورة كيوبيد التي رسمها فوق حرف الباء (في كلمة حب) تعبر عن مفهوم معين للحب يختلف عن مفهومي له . الحب ليس إصابة عشواء من الخارج كالرشح مثلاً ، وانما هو سهم داخلي يغمده الإنسان في نفسه ويحمل مسؤولية جرحه .. ثم ان الفنان رسم كيوبيد — كالعادة — طفلاً متورد الصحة ، وإذا وجد « السيد كيوبيد » فانني أتخيله رجلاً عتيقاً محنكاً مثل سندبادة الأساطير ، شفافاً ونحيلاً ، وربما كان زنجي الوجه .

ثم إني لا أرضى برسم القلوب رمزاً للحب ، لأنني أؤمن بأن الحب يقطن الإنسان بأكمله ، وإذا كان لا بد من رمز للحب ، فليكن الدماغ قبل القلب ، توكيداً على أن الحب فعل مسؤولية ، وابداع عن سابق تصميم وتصور .

وخفت أن أصدم القارىء برسم أدمغة على غلاف الكتاب ، بدلاً من قلوب ! وتضايق ناشري مما يسميه عنادي وشغبي ، وقررنا أخيرا أن أتولى أنا أمر إعداد الغلاف . وقررت أنا : الأمر في غاية البساطة . سيكون الغلاف كلمة « حب » بالعربية ، محاطة بكلمة « حب » ببقية لغات العالم التي أستطيع الحصول عليها ... سأذهب إلى الفنادق

---

* كان ذلك عام ١٩٧٣ يوم صدرت الطبعة الأولى من كتابي « حب » ، وقبل أن أستقل في « منشورات غادة السمان » .

والبارات وأسأل الغرباء عن كلمة « حب » ، بلغتهم ، وأطلب منهم أن يسطروها لي على ورقة ، وأجمعها ثم أكتبها على غلاف كتابي .

ولم أكن أدري أن كلمة « حب » ، في عالمنا المعاصر الشقي ، مثل حزمة ديناميت : و قنبلة يدوية نزعت فتيلتها فما تكاد تخرج بها حتى يقذف بها الناس بعيداً برعب مسعور !

ان كلمة « حب » في عصرنا الرديء مثل مرآة سحرية لا تظهر فيها الأقنعة التي تكسو الوجوه ولا يرتسم في صفحتها الا الوجه عارياً من كل ادعاءاته . ولأن أحداً في عصرنا الرديء لا يريد أن يرى وجهه الحقيقي ، تجدهم يحاولون كسر المرآة .

* * *

في البداية ، ذهبت وبعض الأصدقاء إلى أحد الملاهي الليلية ، وحين أنهت فتاة « ستربتيز » سويدية وصلتها ، اقتربت منها وسألتها بالانكليزية عن كلمة « حب » في لغتها ، وساعدني صديقها اللبناني على تفسير مطلبي .

حب ؟! وانفجرت تضحك ساخرة ، وتأملني بدهشة كأني طلعت عليها من بين دفتي كتاب من كتب العصور الوسطى ! حب ؟ وتابعت ضحكها بصوت مخمور ، وحين ألححت عليها بطلبي ، وقفت فوق طاولة الملهى وبدأت تتعرى وتصرخ في وجهي : « هذا هو الحب يا سيدتي الفاضلة ! » .

* * *

وفي أحد « البارات » التي تنزف أضواؤها الحمر القاتمة دماء الليل الحزين المسموم ، تقدمتُ من صاحبة البار الستينية ، الايطالية الملامح ، وشرحت لها طلبي البسيط البريء . فجرتني إلى غرفة الإدارة الصغيرة في «البار» وأضاءت نوراً قوياً فاجراً سلطته على وجهها المتعب الذي بدا ، في الاضاءة الساطعة ، مهدماً وبائساً مثل مدينة نخرتها الحرب ، وقالت بصوت حزين : « هذا ما فعله بي الحب ! » .

قلت لها : « كل ما أريده هو أن تكتبي لي بالايطالية كلمة حب » . وانفجرت تبكي ... وتعبّ الخمرة . وبدا أن السؤال فجر أوجاعها . وانها تريد أن تروي لي حكاية طويلة ما لبثت أن اختصرتها عندما خلعت عن رأسها « باروكة » شعر اصطناعي ،

وعن عينيها كمية من الرموش كالعناكب ، وكومتها أمامي على الطاولة مع خاتمها الماسي الكبير . وصرخت بي : « هذا هو الحب ! » .

* * *

في « بار » تعمل فيه فتيات باكستانيات سألنا إحداهن عن الكلمة ، فردت بلا مبالاة ميكانيكية — كدمية — : « كم تدفعون ؟ » .

* * *

قررت أن كلمة « حب » تفتح جراح « المعذبين في الليل » ، وانه من الأفضل أن أتابع المهمة في النهار مع أشخاص يحتفظون بكامل وعيهم (أو يتوهمون ذلك !) .

ذهبت إلى سفارة بلد آسيوي بعيد ، وطلبت من أحد الموظفين أن يكتب لي الكلمة : فطلب إذناً من أحد رؤسائه . وطلب الرئيس إذناً من رئيسه . وحدث ارتباك وهرج ومرج ، كأنني جئت أنسف السفارة كلها !

ولم يكتبوا لي الكلمة إلا بعد أن أكدت لهم حسن نيّتي ووقعت لهم تعهداً بأن هذه « العبارة » لن تستخدم لأغراض غير سلمية (!) أو سياسية ، وبعد أن قبل الموظف كتابتها لي على مسؤوليته الشخصية !

* * *

وسألت رجل أعمال هولندي عن كلمة « حب » بلغته فقال : « تعالي أريك صورة حبي » ، وفتح خزانته الحديدية مشيراً إلى كدسة دولارات !

* * *

ونزلت إلى مخزن جارنا الأرمني أسأله عن الكلمة . هو رجل طيب وعجوز وأعور ويبصق باستمرار قبل أن يقول أي شيء هام . وحين سألته عن كلمة « حب » بصق مرتين وتظاهر بأنه لا يسمعني ، وبدت في عينه الوحيدة خيوط أسف من أجل الجارة الوقور . وسألني فورا عن صحة زوجي ... ورفض الرد على أي سؤال !

* * *

وسألت احدى السكرتيرات الأجنبيات عن الكلمة ، فقالت لي وهي تلملم أوراقها :

« لا تذكري هذه الكلمة أمامي ! لقد طردت من عملي للتو بسبب هذه الكلمة المشؤومة .. حب ؟ » وبدأت تبكي !

• • •

بالرغم من الحيثيات السابقة كلها ، من نقدية وغير نقدية وحربية ، قررت أن أسمي كتابي « حب » ...

لا بالرغم منها ، بل بسببها !

١٩٧٤/٦/١٧

قصة القصة التي أحاول كتابتها !

أول البارحة ، استيقظت مع الفجر وفي رأسي ذلك الانفجار السري الذي أحوله غالباً إلى سطور مكتوبة هي قصصي ... استيقظت وأصابعي مكهربة كأنما وصلت بأسلاك لا مرئية إلى مولد أزلي أسماه البعض « الالهام » . وله أسماء أخرى كثيرة منها « الجنون » ... كان الزلزال يجتاح دهاليز روحي ، وأحسست أعماقي مضطربة ونارية مثل بركان على وشك الانفجار ...

وهربت إلى غرفتي الصغيرة الخاصة بحالات « الوضع الأدبي » . وعلى بابها أضأت النور الأحمر — كما على باب الاستديوهات — وهي اشارة تعرف منها أسرتي أن حريقاً شب في أعماقي . وأنني لا أريد أن يحدثني أحد حتى ولو شب في البيت حريق ! ..

ولم أكد ألملم أوراقي وأفكاري حتى بدأ صوت حفارة بناء آلية ... صوت شرس قاس يفتت أفكارك وأعصابك كما يفتت الصخور والأحجار ... وحاولت أن أجمع كل مواهبي في « اليوغا » لأركز على عملي . كان ذلك مستحيلاً . وبعد دقائق شعرت بأن الحفارة تعمل داخل رأسي مثل ماكنة لطبيب أسنان جهنمي يحفر جمجمتي ! . كانوا يحفرون أساساً لبناء ضخم سيتم تشييده قرب قرميد بيتنا العتيق الوديع ... وانتقلت إلى غرفة الضيوف في بيتنا . وهي تقع في الطرف الثاني . وفوجئت بورشة من العمال بدأت العمل بهدم مدرسة « الفرير » القديمة تمهيداً لبناء جهنمي عصري آخر !

وأقلعت عن الكتابة وحزنت كربان جائع للرحيل وجد محرك طائرته معطلاً ... كان بيتي محاصراً بالضجيج وبجنون الآلات الحديثة .

وحاولت الاستغراق في « روتين » الحياة اليومية . ولكن ذلك كان شبه مستحيل . كانت جميع أنواع الحفارات الأخرى تحاصرني : حفارة الواجبات الاجتماعية ، حفارة العلاقات القديمة نصف الميتة . وحفارة الآخرين اللامبالين بأعماقك ... حفارة الزحام

والفضوليين والمفترضين أن من واجبي أن أراهم !

كنت مكهربة ، وأصابعي بدأ يسري فيها ألم غامض . وفمي متشنج كما لو أن كمامة تقيده ... وفي حلقي صرخة مكتومة . واستمرت الحفارة طوال النهار . وعلمت أنها ستستمر طوال الشهرين القادمين على الأقل .

وفي اليوم التالي (البارحة) قررت أن أستأجر شقة مفروشة أهرب اليها للكتابة ... ووجدتها في الطابق السابع من بناء ساحر يطل على البحر . وعبر نافذة الشرفة كانت الأمواج تجيء إلي وخط الأفق يبدو طليقاً ولا متناهياً ... ودفعت ايجار الشقة الباهظ لشهر سلفاً ، وقلت في نفسي : ثمن القصة التي سأكتبها معادل لايجار الشقة ، المهم هو أن أكتبها ، وليظل الافلاس شعاري !

كانت هنالك مشكلة ، وهي أن السرير يحتل الغرفة ويسرق منظر البحر . فهي شقة أعدت لانسان يحب أن يمارس أي شيء إلا الكتابة ! !

وبدأت المتاعب التي بدت لصاحب الشقة سلسلة من الرغبات الغريبة الغامضة : لا أريد سريراً في الشقة ، أريد منضدة . صاحب الشقة يلفت نظري إلى التجهيزات المطبخية الممتازة فيها وأنا ألح على احضار «لمبادير» له ضوء ساطع يصلح للكتابة والقراءة اذ لاحظت أن اضاءة المكان « رومانتيكية » جداً !

وبعد الظهر حملت أمتعتي وجئت . كانت مؤلفة من منضدة « ولمبادير » و «بيك‌آب» وأسطوانات وحقيبة سفر . وحين وصلت سقطت حقيبة السفر من يدي وانفتحت وظهر للجميع أنها تحوي أوراقاً ودفاتر و « نوطات » . مجرد أوراق بلا ثياب .. واحتملت نظرات الشك والدهشة التي بدت في عيون الجميع : صاحب البناء . ووكيله وموظفيه. وكنت مرهقة ومنبوشة الشعر . وبدوت حتماً مثل هاربة من العدالة . لا يهم... لا شيء يهم غير أن أحصل على بعض السكينة لأكتب ! .. ومساء أغلقت باب الشقة بعد أن أعددت كل شيء ليوم عمل مقبل : طاولة الكتابة في موضع السرير أمام الشرفة . و « اللمبادير » و « البيك آب » والأسطوانات ... وواجهت بعض المتاعب العملية الصغيرة كايجاد « فيش حرامي » لادارة الأسطوانات واشعال نور الكتابة في آن واحد . واشتريت قهوة وسكراً وتحفزت لليوم التالي ..

اليوم صباحاً نهضت باكراً وقد قررت الهرب من بيتي إلى الشقة الجديدة قبل أن تبدأ الحفارة بازعاجي . حملت بعض ما نسيته من أقلام وأوراق . وسقطت من يدي

المحبرة وتشاءمت (حين كتبت كتابي الأخير « رحيل المرافىء القديمة » استهلك نصف زجاجة حبر . احتفظت بنصفها الباقي تفاؤلاً) واندلق الحبر الباقي لقصّي الحديدة على الأرض مثل دماء قتيل ، وتشاءمت ...

سرت بسيارتي المهملة بضع مئات من الأمتار . واكتشفت أن أحد اطاراتها قد « توفي بالسكتة » . هبطت وتركتها حيث هي وركبت أول « تاكسي » . مستميتة للوصول إلى الشقة والكتابة . قرب الشقة اصطدم « التاكسي » بآخر . حادث بسيط انكسر له زجاج الضوء الأمامي وبعض أجزاء الهيكل الحديدي . وهبط السائقان يتشاجران ، وذهب أحدهما للاتصال هاتفياً بالشرطة وبخبير بينما الثاني يشرح لي كيف أن السائق الآخر هو المسؤول . ولملمت أشيائي وهربت قبل أن يعتقلني السائق الآخر كشاهدة ! تابعت الدرب مشياً إلى الشقة . دخلت ، وجدت عبارة « المصعد في التشحيم » على باب المصعد . صعدت الطبقات السبع وأنا ألهث وأشتم السجائر . وأغلقت الباب وأقفلته مرتين . وقررت لو أن الأقفال تجدي لاشتريت مجموعة منها أرصع بها الباب على طوله لأضمن عدم تسلل العالم الخارجي إلي . ولكن ! .

وضعت احدى الأسطوانات وفتحت باب الشرفة وتركت النسيم الصباحي يدخل عبر مسامي كلها . وبالبحر العظيم الشاسع غسلت جفوني وقررت أن أبدأ الكتابة ... شعرت بالرغبة في فنجان قهوة ، وفوجئت بأن الغاز لا يعمل ، لكنني لم أطلب اصلاحه كي لا يضايقني أحد ... كنت في حاجة إلى أن أكون وحدي وحدي ...

ولم أكد أبدأ الكتابة حتى سمعت ضرباً عنيفاً مستمراً وأطللت من الشرفة ، ففوجئت بعشرات العمال وقد انتشروا حول البناء الأصفر شبه العتيق الملاصق لشقتي ، وفي أيديهم مطارق ضخمة وقد باشروا بهدم البناء الصغير المجاور .. تمهيداً لاعادة بنائه بشكل عمارة ضخمة ! .. دقائق وبدأت سيمفونية المطارق والبناء ... وعما قريب تصل الحفارة !

قولوا لي أين أهرب ؟! . وأين جزيرة روبنسن كروزو لأذهب للاقامة معه ؟ أم أن الحفارة سبقتني اليه ؟!.

وهل صار روبنسن كروزو نفسه متعهد أبنية حديثة ضخمة وصاحب حفارات ؟ ..

أين أين أين المفر لأمثالي ؟ أم أنه محكوم عليهم بالموت في عصرنا ، وعما قريب يدفنوننا داخل اسمنت أساسات بناء جديد يشيد من أجل مزيد من الأبحاث لاختراع مزيد من القنابل المدمرة ؟ ..

وها أنا لا أستطيع كتابة شيء اليوم سوى : .S.O.S كررتها حتى امتلأت بها الصفحة . انها شارة استغاثة السفن قبل أن تغرق . أين أين أين أهرب ؟! ..

ملاحظة : بعد أن كتبت السطور السابقة ذهبت وأحد الأصدقاء إلى برمانا بحثاً عن السكينة في غاباتها . وجدت مقهى نائياً على قمة جبل وجلست أتأمل الصنوبر وهمس الريح بين أشجاره . ثم أخرجت قلمي وأوراقي لأكتب حين فوجئت بصوت حفارة في قاع الوادي . وكان لصوتها شبه قهقهة ساخرة وحشية . الأمر لا يصدق ! لكن . ببساطة ، حدث لي . كأني مرصودة لتلاحقني أنواع الحفارات كلها .

باختصار : تم اجهاض القصة• !

• كانت تلك هي محاولتي الأولى لكتابة روايتي « بيروت ٧٥ » .

٧٤/١١/٩

بحزن غابة تحترق ، أقول ...

في مثل هذا اليوم منذ أربعة أسابيع بدأت كتابة روايتي « بيروت ١٩٧٥ » . في الحقيقة ، لم أكن أقصد كتابتها . كنت أنوي اعادة كتابة رواية عذبتني طيلة ثمانية أعوام وهي « السقوط إلى القمة » ، أشهر رواية عربية « غير منشورة » ! لكن الذي حدث هو أن شخصاً رقيقاً يحب المال والشهرة اسمه « فرح » تدخل بيني وبين أوراقي : وفرض علي أن أكتب حكايته مع بيروت .

هذا الشخص لم ألتق به قط في حياتي ! لقد نَبَتَ داخل دماغي وتوسل إليّ أن أروي حكايته . (هكذا يفعل أبطال قصصي دائماً . انهم يسكنونني كالأرواح ويرغمونني على نقل أصواتهم ، فتصير حنجرتي أداة لصرخاتهم) . وقررت : سأكتب حكاية فرح مع « بيروت ٧٥ » في قصة قصيرة ، ولن يستغرق الأمر أكثر من أيام ثم أعود إلى روايتي « السقوط إلى القمة » .

ولكن كاتب القصة أداة لأصوات كثيرة تسكنه . ولعل عقلي الباطن ، حين التقط عبارة « بيروت ٧٥ » ، تفجر كل جنونه ، كل حزنه ، كل ما رصده طيلة هذه الأعوام ! فهو لا يرى في بيروت « سويسرا الشرق » ، كما يقولون ، وانما يرى فيها جزءاً من الأرض العربية ، وكل ما يدور في بيروت يعكس ما يدور في النفس العربية ، في كل قطر ، من أحلام ومآس وأوجاع اقتصادية وسياسية وقهر . كل ما في الأمر أن طبيعة بيروت تعري الناس بقسوة أشد وبسرعة أكبر ، فتدينهم ويدينونها ، وتدمر بعضهم وتحرق البعض الآخر ، ومن الناس من هو كطائر الفينيق يبعث دوماً من الرماد أشد قوة ونضارة ونقاء ...

ووجدت أمثال هؤلاء الناس يصرخون في أعماقي . في البداية كانوا يتوسلون إلي أن أكتب قصتهم ، ولم تنقض أيام وإلا وصرت عبدة لهم لا أملك منهم فكاكاً . ولم أعد

أنتظر أن يتوسلوا إليّ ... صرت أستحضرهم وأنهض قبل الفجر لأكتب حكاياهم ولم أعد أعرف النوم الحقيقي (أشتاق إلى النوم . إلى السكينة . إلى السلام !) وهم لا يتركون لي لحظة سلام . ياسمينة ، وفرح ، وأبو الملا ، ونمر ، وطعان ، ونيشان ، وفاضل ، وغيرهم ... كلهم صرت مسكونة بتفاصيل حياتهم . بحكاياهم . بصرخاتهم . بآمالهم . بسقطاتهم . ليس صحيحاً أن الكاتب يخلق أبطال القصة . الصحيح هو أن أبطال قصته يستعبدونه . انهم في البداية ينبتون في داخله : لكنهم ينفصلون عنه بسرعة و « يكونون » ، بل ويرتدّون عليه أحياناً ويرفضون أن يقولوا إلا ما يخرج من طبيعتهم كبشر مستقلين ، وحتى انهم يرتدّون على الهيكل العام للقصة ويعدلونه بما يتفق وصفاتهم ككائنات حية حرة ! وبدأت حريتهم تأكل حريتي ... وبدأت أفقد صلتي بالعالم الخارجي ... ها هم يغلون على أصابعي كل ساعات النهار ، يرقصون بين جلدي ولحمي ، ويستلقون داخل عظامي ، ويتسلقون أهدابي ، ويخرجون من وسادتي حين أحاول النوم ، ويقرفصون قرب السرير بعيونهم المفغورة ، محدقين في وجهي في الظلام كي أنهض وأتابع كتابة حكاياهم . فهم يعيشون فقط من خلالي ، وهم مصرون على الحياة ولو قتلوني . وتحولت بين أيديهم إلى مجرد وسيط روحي كل مهمته هي نقل رسائلهم ورغباتهم ! ولأجل ياسمينة وفرح وأبو الملا ونمر وطعان وغيرهم من أبطال قصتي « بيروت ٧٥ » انفصلت تماماً عن دوائري الاجتماعية كلها ، ولم تعد أسرتي هي أسرتي ، فأنا أعيش مع أولئك الأشخاص الوهميين الذين أكتب عنهم ... نتشاجر أحياناً ونتصافى في ساعات طويلة من الكتابة التي لا يقطعها شيء .

لقد تسللوا حتى إلى أحلامي ، وقد حلمت بالصياد أبو مصطفى ، ذي اليد نصف المقطوعة . ونهضت من نومي مذعورة ، وهرعت إلى مكتبتي ، وحملت أوراق المخطوطة المئتين ، وبدأت أرميها ورقة ورقة إلى سقف الغرفة في قلب الليل والظلام وأنا أصرخ بهم : ارحلوا عني واتركوني أنام !!!

* * *

ولم يرحلوا عني .

فقررت أن أرحل عن نفسي . كان ذلك ظهر يوم الثلاثاء ٢٩ تشرين أول (أكتوبر) ، انطلقت بسيارتي إلى غابات « حريصا » ... دوماً أهرب إلى البحر أو إلى الغابة . هنالك فقط أملأ بطارياتي النفسية المستنفدة بشحنة جديدة من حب الحياة لأجل الحياة . وغابات

حريصا كثيفة ، وجميلة ، والبحر يطل في القاع . انك تسند رأسك إلى صنوبرها وتتأمل البحر وتغمض عينيك ، فتحس بالرذاذ المالح يغسل وجهك ، ويخيل اليك أنك تسمع صوت اصطخاب أمواجه . وقبل جونية بقليل انعطفت بسيارتي وبدأت أصعد الجبل إلى الذروة حيث تمثال « سيدة لبنان » ومشهد طبيعي من أجمل مشاهد العالم . أوقفني رجال الجيش وطلبوا مني العودة .. وفوجئت بأن الغابة تحترق ! .. هل شاهدت قط غابة تحترق ؟ .. ربما كان نيرون وحده يستطيع الاستمتاع بمشهد احتراق روما أو غابات « حريصا » ... وأنا لا أنكر أن المشهد كان جميلاً ! .. كل هذه النار تأكل الأشجار وتسري في الجبل بسرعة وشراسة كما يسري الحب في القلب ويجتاح كل شيء ويحرق كل شيء لتتغذى النار أكثر ويتصاعد لهيبها . وكان الدخان يركض نحو الذروة ويلف الجبل بغلالة تشبه الضباب ، حزينة كحزن القلب بعد انطفاء نار الحب وبقاء الرماد والقتلى ورائحة الهشيم وحطام المراكب ...

أعترف ، كفنانة سحرني المشهد للوهلة الأولى ، ونسيت كل شيء عن أبطال قصتي . وبقيت وحيدة أتأمل ، واحترق قلبي حزن عميق عميق ، فالذي كان يحترق أمامي ليس هو الغابة ، بل هو رمز لكل ما هو جميل وبريء وحي في لبنان ... وليست الأشجار وحدها ما يحرقها قصرنظر المسؤولين وعدم تفكيرهم سلفاً بشراء طائرات حديثة لاخماد الحرائق المتوقعة في بلد حار ومليء بالغابات كلبنان . فالانسان يحترق في لبنان كما تحترق هذه الغابة أمامي ، وللسبب نفسه (الإهمال ، وقصر النظر والتخلف .. إلى آخره) . ولم تعد الغابة غابة ، وإنما رأيت الأشجار تستحيل إلى آلاف المواطنين الذين يشتعلون ويحترقون . وامتلأ أنفي برائحة اللحم البشري المحترق ! صارت الأشجار المحترقة قافلة من الناس المشتعلي الرؤوس ... وتعالى الصراخ ، وشعرت بأنني أنا أيضاً أحترق ... وعدت إلى البيت والدوار يلتهمني وفي صدري دخان ... دخـــان . . . ودمـــع . . .

وفكرت « بالتلفريك » الذي يصعد فوق هذا الجبل الجميل الذي كان حتى البارحة مغطى بالأشجار والغابات ... اذهبوا أيها الناس اليه واركبوه في رحلة سياسية لا سياحية ! لن تشاهدوا بعد الآن غابة « حريصا » الخضراء ، وانما ستشاهدون رقعة محترقة مـــن الأرض ، وجثث الأشجار المحترقة مشلوحة في هشيرها ... تأملوها من بعيد وقولوا :

هذه صورة عن مقبرة حياتنا ، وعن المصير الذي ينتظرنا إذا لم ... إذا لم ... (هل أقول الكلمة أم تعرفونها جميعاً ؟!) .

• • •

وعدت إلى أبطال قصتي ، لا مفر منهم ! حتى الغابة لم تعد ملجأ . لقد احترقت ، واحترقت في داخلها ساعات من عمري ، وضحكاتي ، ولحظات صفوي المخبأة في جذوع أشجارها . وودعتها وانتهى الأمر ...

وعما قريب أودع أبطال قصتي . في الأسبوع المقبل يتعرف اليهم قرائي وتنتهي علاقتي بهم تماماً . وهذا أمر محزن . دوماً أحزن حينما أنتهي من كتابة قصة وأفارق أبطالها . أشعر أنني ودعت انساناً غالياً : انساناً أحببته بصدق لفترة ومنحته كل وجودي لفترة وأنا أعرف سلفاً ومنذ البداية أن فراقنا كان محتوماً ...

ولكن ... وداعاً ...

وداعاً لمن اجتاحني كالانتحار . واستولى على كياني كنبي ! ..

بحزن غابة تحترق أقولها ...

وداعاً « بيروت ٧٥ » وإلى لقائك مع القراء !

١٩٦٨/١١/٥

.. وحياتي ملحمة تبدأ من عنقي فما فوق !

« مهداة إلى غسان كنفاني »

وأخيراً ، جاءت « اللحظة الذروة » ...

لحظة امتزاج كل ما في طاقة الإنسان على الألم ، بكل ما في طاقته على النشوة ، في توتر نادر مروع عجيب غامض ...

وللمرة الرابعة في حياتي ، أعيش تلك الحمى الخلاقة القاتلة ، لالتقاء غروب الاحتضار وفجر الولادة ، وعناق سلبية الشلل مع توقد التفجر ، فصاحة التوازن وهذيان الفوضى .. عشتها للمرة الأولى وأنا أخط سطور كتابي الأول « عيناك قدري » . التهبت بها للمرة الثانية مع كتابي الثاني « لا بحر في بيروت » . وعرفتها للمرة الثالثة مع كتابي الثالث « ليل الغرباء » ... وها أنا اليوم بعد طول مخاض على عتبة بلوغ نشوتي الرابعـــة .

* * *

وأخيراً جاءت « اللحظة الذروة » ..

وأشعر الآن بالضيق وبالغيظ وأنا أتحدث عنها لآلاف القراء ، بل وبالمهانة أيضاً ! .. بالضبط « المهانة » هي الكلمة . لا ليست « المهانة » هي الكلمة بالضبط ! ! .. ثمة شعور يفترسني الآن وأجهل الاسم الدقيق له ، وهو يشبه احساس امرأة رضيت بأن تنقل شاشة التلفزيون لآلاف المشاهدين عملية ولادتها ، وها هي يجلدها وَجَعُها العاري وفضولهم السري .

لكنني أيضاً أعجز عن الكتابة الآن عن أي شيء آخر .. ربما لأنني أكتب لك وحدك

هذه السطور (أنت أيها الشقي) ، لكنه تشويهنا المهني ككُتّابٍ يدفع بنا باستمرار إلى ممارسة ماسوشية تعرية الذات الحميمة على شاشة الأبجدية العمومية كالرصيف والمقهى ! ...

أكتب إليك الآن يا غسان رداً على رسالة منك عمرها حوالي العام قلت لي فيها « بالنسبة إليكِ ، الحياة ملحمة انتصار تبدأ من عنقك فما فوق . الكتابة وحدها درعك ، وحدها تجلو حقيقتك ، أكثر مما يجلو أي (ميني جوب)* أنوثتك » .

أكتب اليك لأقول : ها أنا للمرة الرابعة في حياتي أكتشف أنني أدوخ بعض الوقت لكنني لا أدوخ كل الوقت . وانني أوظف (دواري) في خدمة الشيء الوحيد الذي هو أنا : الكتابة .

* * *

وأخيراً جاءت « اللحظة الذروة » ..

وبإزميلي أدق باب ذلك الهيكل الكوكب ، حيث النار السوداء تحرق وتضيء ، ثم خطوة واحدة ، وأنتقل بها من ترحال الغجرية إلى الغوص في تلك المغارة الرهيبة التي هي نفسي .. وعلى أرضها أفرش حصيلة ما يبدو من الخارج تسكعاً وعبثاً : صيدي وقتلاي وحطام مراكبي وبخوري وبطاقتي الصحافية والكاميرا وجواز سفري الممهور بعشرات الأختام ، ودرجاتي العلمية وانتحاب الريح عبر ثقوب شراعي .. هذه كلها أكومها إلى جانب شبكتي الخاصة بصيد أسماك الأبجدية ، وما تزال تقطر منها ملوحة الموج العاصف ، وملوحة الصمت الدامع الممزوج بأمطار شوارع نسيت اسمها في مدن نسيت لياليها ...

* * *

قبل دقائق ، قادني إلى هذه الغرفة ببناية بيكاديلي للشقق المفروشة رجل أعور ، حدق جيداً في حقائبي وبدا في عينيه بريق غير ودي وهو يتخيل قمصان النوم الشفافة التي لا بد وأنها تحتويها ، ثم أرشدني إلى قفل الباب بلهجة ذات معنى وكأنه يشتم الغانية الجديدة التي حلت بالمبنى ... كدت أصرخ به : « بعينك العمياء حدق بي جيداً وبحقائبي تفهم » .

---

* ميني جوب : موضة ثياب قصيرة تكشف عن الساقين حتى منتصف الفخذين كانت شائعة في أواخر الستينـــات .

لكنني لم أصرخ ، وهو تابع التحديق بعينه التي يتوهمها سليمة : عين البصر لا البصيرة ..

ها أنا الآن أكتب اليك يا غسان،وقد تناثرت حولي الأوراق والمخطوطات والمذكرات التي كانت تملأ حقائبي الثلاث ، وبعد لحظات أفتح الحقيبة الرابعة (جمجمتي) ، المملوءة بكلمات لم أقلها بعد ، وما زلت أجهلها ، المسكونة بمخطوطات أحداث لما أفك شيفرتها بعد ، وبصور ووجوه لما أترجم بعد حركات شفاهها المتوترة وصرخاتها الخرسى .

وفجأة يا غسان ، تمتلىء الغرفة بهذا كله .. وأجلس أرقب الوجوه تخرج من سطور الرسائل ، وصرخات الرجال تتعالى من صدورهم ، وأحزان النساء المكسورات تتدفق من قوافلهم داخلي ، ويهطل المطر ، وتنفخ الريح ، ويتعاقب الليل والنهار والصاعقة والصحو ، وفي لحظات تتعاقب الفصول عليها على روحي : فصول الزمن الذي أنا شاهدته وضحيته وجلادته ! ...

* * *

أتذكر الآن يا غسان بوضوح حوارنا الأول في مطلع عام ١٩٦٤ . أرى الآن بوضوح وجهك النسر الذي عرفته منذ بدأت مأساتي وأسطورتي معاً أي منذ هجرت مدينتي دمشق وبدأت رحلتي نحو جحيم الوعي والصدق مروراً بطريق بيروت .

قدمت لك كتابي الأول « عيناك قدري » هدية . وقلت لي « لقد اخترت طريقاً شاقة . ستلتقين بكثير من الذئاب » . قلت لك « سأصير ذئبة ! » قلت : « لا أعني الذئاب بمفهوم الأفلام المصرية التقليدية . لا أعني ذئاب الجسد . أعني ذئاب الوعي والاكتشاف . ذئاب التخدير والضياع والصحو والانتماء وذئاب الحيرة . الذئاب التي سوف تنبت في داخلك » ..

وظللت يومها صامتة يا ذئبي العزيز ، وأنت تقلب الصفحات الأولى في كتابي الأول ، وتقرأ الاهداء لأبي : « إليك ، يا أول من أحببت ، لأنك علمتني كيف أصنع قدري » .. همست وقد أضاءت عيناك بذلك الشعاع الأخضر الداكن : « هل قررت أن تكوني من الذين يصنعون أقدارهم بأيديهم؟» .. ظللت صامتة واستمتعت بنظراتك وهي تضمني إليها بحنان مصلوب عتيق يرقب نصف حزين نصف ساخر (طالبة صلب) مصرة على النجاح في عملية الصلب الذاتي ودرب الجلجلة الداخلية ...

كان ذلك منذ أقل من خمسة أعوام تقريباً يا غسان ... وأنت دوماً تؤكد لهم : « الكتابة حقيقتها » ... وحينما لا أكتب تدافع عني بقولك : « ها هي تعيش مرحلة الاستسلام الشجاع لحقيقة الأشياء ، لكنها لن تلبث إلا أن تستعيد ذاتها وصوتها »• ... وحدك تقريباً تؤمن « برأسي » رغم عدم كرهك لما تبقى مني !! ...

يسألونني هم ، أحباء وأعداء : « لم نقرأ لك نتاجاً أدبياً جديداً منذ زمن طويل . ماذا حدث ؟ أهي لعنة الصحافة واستنزافها ؟ أم لعنة التشرد ؟ أم صباك العابث ؟ الأنثى فيك بدأت تلتهم كاتبة القصة ؟» يسألني بعضهم بطيب نية وحب ، ويسألني البعض الآخر بشماتة مهزوم يذكّر مهزوماً آخر بهزيمته . وكنت أقول لهم الحقيقة : الأخرى ما تزال هناك . ربما أكثر من أي وقت مضى . المفجع أنني وحدي أعرف ذلك ، إذ إنكم لا تستطيعون أن تعوا وجودها إلا بعد أن تثبت لكم ذلك على شاشة كتاب مطبوع .

ويسألونني : متى ؟

وأقول : لا أدري ! ...

* * *

ثم حدث الأمر فجأة ... وليس بالضبط « فجأة » .. فالعمل الأدبي ليس وليد الصدفة ، ولا لقيط اللحظة .. وكما يسبق تفجر الينابيع مرحلة صامتة من اختزان التربة للمطر والندى وربما الدموع ، وكما الكمأة جذورها لا مرئية في رعد سابق ، كذلك كانت أيامي الأخيرة المدزقة كلها منذ صدور كتابي الأخير « ليل الغرباء » في حزيران ١٩٦٦ .

وبعد مرحلة أستعير تسميتك لها ، هي « مرحلة الاستسلام الشجاع لحقيقة الأشياء » . جاءت اللحظة الذروة ... وها أنا في شقة مفروشة مهجورة منسية لا أحد يعرف فيها ما

• عانيت مرحلة امتدت بين ١٩٦٦ (وقت صدور ليل الغرباء) حتى عام ١٩٧٢ (يوم صدور كتابي : رحيل المرافىء القديمة) لم يصدر لي فيها أي عمل قصصي . وللأسف صدر « رحيل المرافىء القديمة » بعد موت غسان كنفاني بأشهر !! ...

أنا ولا أحد يعرف خارجها أين أنا ، أبدأ أخيراً إعداد روايتي الأولى « السقوط إلى القمة» * . فللعمل الأدبي توقيته الخاص . قد يأتي « قبل الأوان » في نظر بعض الناس . وقد يأتي أيضاً « بعد الأوان » في نظرهم . ما لا يفهمونه هو أنه لا علاقة لهم بهذه التفاصيل ، وان له توقيته الخاص . العمل الأدبي لا يعترف بتذكير الناشر حول « بداية موسم النشر » . لا يعترف بتوقيت خبراء « العلاقات العامة » . لا يعترف بتوقيت (الأصدقاء) الذين في صداقتهم ما يجعلك تحلم بأعدائك وتتوق إليهم ! ! ...

الأدب تجمع وتخمر وتوازن ، وأدب (البوزات) الذي يبدأ بارضاء الأصدقاء وصالونات الحلاقة ، ينتهي تحت السشوار ومن ثمة في حفل كوكتيل بأحد الفنادق الفخمة .. وأنا لا أنتمي إلى (الكرنفال) رغم أنه يحلو لي أحياناً الاندساس بين صفوف (نجماته) على سبيل المراقبة لا (المصاهرة) .. وحتى أنت ، تخاف عليّ أحياناً من نفسي وإلا لما كتبت لي « اطرحي مرة وإلى الأبد حيرتك الأنثوية المغيظة بين رأسك وركبتك ، فاكسب مرة وإلى الأبد رأسي ورؤوس الآخرين ، وتكسبين رأسك » . بالمناسبة ، رسائلك يا غسان هي أجمل ما قرأت ، وأجمل ما سيقرأه الناس بعد موتنا معاً . أقولها الآن ، الساعة ٧ و ١٨ دقيقة من مساء يوم ١٩٦٨/١١/٥ ، ولكن أطفالاً يولدون في هذه اللحظة سيرددونها فيما بعد عشرات الأعوام ، وسيرددها أولادهم من بعدهم ... رسائلك إليّ هي أجمل ما كتب في اللغة العربية بعد القرآن ! ..

* * *

ها أنذي هنا ، وحيدة ، ملعونة ، تخوف الأمهات بناتهن بمصيري في معرض حضهن على تعلم فنون الطبخ ومخادعة الزوج .. ها أنا هنا ، نائية ومهجورة ودمشق بصقتي من ذاكرتها ودمغتني بالرفض .. حينما تفوح من أوراقي رائحة موسم التفاح المقبل ، وزهر الليمون الذي سينبت في حقول ورقي ، أحسني قوية مثل أميرة جحيمية ، وبريئة ، مثل لبوة تفتش في حقول اللغة عن فريستها .. وأحسني أستطيع أن أغفر لنفسي أي شيء وكل شيء ، إذا استطعت أن أتعلم المزيد عن ردم الهوة بين اللغة والفكر ، وإذا استطعت أن أنمو فوق آلامي وأن أنتشر كالعشب داخل أرض آلام الآخرين ...

* * *

---

* « السقوط إلى القمة » : أشهر رواية عربية غير منشورة . كتبتها فسرق مخطوطها في مطار أجنبي ، ثم أعدت كتابتها وضاعت ثانية ، ثم أعدت كتابتها وكانت جاهزة للطبع حين احترقت في الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥ يوم انفجر صاروخ في غرفة مكتبي وأتى على كل ما فيها .

أين أنت يا غادة ؟ ماذا تفعلين بنفسك في غرفة مفروشة خلّف الغرباء فيها آثار شهواتهم وقيئهم ، أنت أيتها الوردة الدمشقية التي نبتت فوق نجمة في « ساحة النجمة » ؟

أنا هنا . وحيث أكون تكون دمشق وساحة النجمة .. في البداية كنت أظن أن « اللحظة الذروة » بحاجة إلى مكان هادىء وناء ومنعزل كهذا المكان .. الآن ، أرى أن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من أن أخلع عني جلدي القسري ، جلد الحياة اليومية والعلاقات الآنية ، وأعلقه في مقعدي بالمقهى ليقدده الضجر . بعيداً عن جلدي ، وعن صوري في النفوس والصحف ، وعن الأحكام بالإعدام الصادرة بحقي من خلف أقنعة الخبث الاجتماعي ، إني أنا أظل أنا ، وحياتي ملحمة تبدأ حيث أختار ، فقد أعلنت نفسي كائناً حياً ، ما هو بِعَبْدٍ لنزواته ، لكنه أيضاً ليس خجلاً بها ! ...

* * *

غسان ، أيها الشقي ..

لقد حملت معي إلى هذه الغرفة مرآة متوسطة الحجم علقتها على مسمار واحد عجيب الموضع : فقد وجدته مدقوقاً في جدار عار على علو خاص ، إذ إنه لا يتيح لي أن أرى من نفسي في المرآة ، أكثر من عنقي فما فوق ! ..

أتأمل نفسي في المرآة ، ويخيل إليّ أن ما تبقى من جسدي غير الظاهر فيها قد تلاشى تماماً .. وانها ليست صدفة أن يكون المسمار مدقوقاً في هذا الموضع بالذات . كأنما هو مرصود لذلك . كأنما دقته اليد نفسها التي تخطط لقدري ، والتي كنتَ بوقاً لها يوم كتبت لي « بالنسبة إليك الحياة ملحمة انتصار تبدأ من عنقك فما فوق » ...

من دق المسمار ؟ أظن أنني أنا فعلت لحظة دخولي إلى الغرفة ! ...

* * *

أين أنا ؟

ما الفرق ! ... في مكان ما ، في غرفة ما ، أعيد ولادة ذاتي للمرة الرابعة بعد

« عيناك قدري » و « لا بحر في بيروت » و « ليل الغرباء » . الغرفة حقيرة وبائسة ولا تليق بزهرة الياسمين الدمشقية القادمة من ساحة النجمة بدمشق ؟ ..

ذلك لا يهم ما دام العالم نضراً ومتألقاً داخل حجرات روحي ، ومن النوافذ الشاسعة لقلبي تهب رياح تشبه الموسيقى ... وفي موضع المرآة أقرأ قدري ! ...

١٩٧٣/١٢/١٢

وهذا أيضاً نقد أدبي

كل صباح أطالع في الصحف عمود الوفيات لأطمئن إلى أن اسمي ليس بين الأسماء ، ثم أنتقل فوراً إلى صفحة الجرائم لأنها ، في نظري ، تعبر عن واقع الشعب وأوجاعه وانفجاراته أكثر من البيانات الرسمية كلها . وكل صباح أشتهي أن أقرأ حادث سطو على مكتبة . أجـــل ، حادث سطو على مكتبة ، يقوم فيـــه « الجناة » بسرقة بعض الكتب الجميلة . فالناس يسرقون كل يوم ، يسرقون الذهب والماس والحشيش ودواليب السيارات والسجائر ، ولكن لم يحدث قط أن حوكم انسان لأنه سرق كتاباً مثلاً ! وأقصى أحلامي أن يتم سطو على مكتبة ما من أجل سرقة كتب — من بينها كتبي — لا بغرض التجارة وإنما القراءة (من يشتري كتاباً ؟ ومتى كان الكتاب غير خسارة مادية للبائع والشاري ؟!) .

وهذا الأسبوع تحقق جزء من أحلامي ... فقد تبينت أن كتابي الجديد « حب » الذي أرسلته إلى أصدقائي من صحافيين وكتاب ، ضاعت أكثر نسخه فلم تصل إلى أصحابها وإنما وصلني أنا أكثر من عتب ...

إلى الذين « سرقوا » كتابي شكري العظيم . لقد غمروا قلبي بالفرح ، لأنه لم يحدث كثيراً في بلادي أن أحب أحد كتاباً إلى حد السرقة ...

إلى أولئك المجهولين الطيبين البسطاء أقول : عملكم هو أجمل نقد أدبي كتب أو سيكتب عني ! فشكراً ، وغفراناً لكم !

١٩٧٤/١٢/١٦

قلبي بلاط الغربة !

رسالة ...

... وصلتني من أحد قرائي في مستشفى المجانين ... رسالة محملة بالأسى . بالوجع . بالضياع والعذاب . عشر صفحات كاملة مشحونة بحمى الهذيان ...

وضممت الرسالة إلى قلبي ، فقلبي بلاط الغربة ...

وتذكرت رسالة مشابهة كتبها لي رجل ارتكب جريمة ، وبعد أن سطرها انتحر ... ووصلتني في البريد بينما كان الدود قد بدأ يلتهم جثة كاتبها (مهدي اليعقوبي) ...

كثيرة هي الأحزان التي تصلني بريدياً ! وحين أستلم بريدي أشم منه رائحة المطر والدمع ، ومن بعضه يقطر الدم ... رسائل من السجن ، من المطارات، من آبار اليـــأس ...

وتذكرت مئات الرسائل الحائرة ، المتألمة ، الغاضبة ، المفترسة ، التائهة التي تصلني كل أسبوع ، وأضم وجع قلبها إلى وجع قلبي ، وأقرأ في عذابها نوطات مختلفة الايقاعات لعذابي كانسانة وكمواطنة ... كأني كاهنة الوجع في ليل الغرباء ! ..

ووعيت فجأة : « لم يكتب لي أبداً إنسان سعيد !!! »

لم يكتب لي أحد ليقول لي انه سعيد راض ! فلماذا ؟

ترى لأن السعداء لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ؟!

لحظات حارة

تعلّمَ الناس العمل ، لكنهم لم يتعلموا الحياة .

— مكسيم غوركي —

« أحبوا أعداءكم » ؟. لا ، بدلاً من أن تحبوا أعداءكم ، عاملوا أصدقاءكم بشكل أفضل قليلاً .

— اد هوي —

إنه لصديق جيد . فهو لا يطعن من الخلف ، وإنما مواجهة فقط .

— ليونار ليفنسون —

٧٤/٧/١٥

لمسة حنان ... قبل السفر !

تسلمت اليوم نتيجة تحليل دمي .

قرأت في البطاقة « 0 » ايجابي .

لم تذكر البطاقة أي شيء عن درجة غليان دمي ، ولم يلحظ أحد وجه حبيبي الذي يسبح كالسمكة داخل شراييني . ولم يذكروا شيئاً عن درجة المرارة في دمي ، وحدود الشوق والنسيان ...

لا شيء سوى « 0 » ايجابي .

وسألت الطبيب عن معنى ذلك فقال لي : معناه أن دمك صالح للنقل إلى جميع الناس ، ويمكنك أن تمنحي دمك إلى كل أصحاب الفئات الاخرى ، ولكن ، في حال حاجتك إلى الدم ، لا يقبل جسدك غير دم من فئتك . بعبارة أخرى ، أنت قادرة على العطاء أكثر من قدرتك على الأخذ . تعطين الجميع وتأخذين من فئتك وحدها . تلك مأساتك ! ..

قلت له : لا ، بل تلك حكايتي . ويوم أفقد قدرتي على العطاء ، أموت .

وكثيرون من الذين منحتهم من دمي في لحظات حاجتهم ، منحوني من سمهم . ولكن تلك حكاية أخرى ! ..

* * *

تمر بك أيام تشعر فيها بأن كل شيء يثقل على صدرك ، الذين يحبونك والذين يكرهونك والذين يعرفونك والذين لا يعرفونك . تشعر بالحاجة إلى أن تكون وحيداً كغيمة . أن تعيد النظر في أشياء كثيرة . أن تعود الى ذاتك مشتاقاً لتنبشها وتواجهها بعد طول هجر . أن تفجر كل القنابل الموقوتة التي تسكنك .

في أيام كهذه ، تصير المدينة كابوساً ، تمطر ضجيجاً لزجاً ، ورنين الهاتف يفترسك ، وأصوات الجميع ، الجميع ، تحاصرك بودها العدواني الرتيب حيث لا شيء مجانياً وكل شيء يعطى له فواتيره . ولا حتّى رعشة بلا مقابل ! ..

ماذا سوى الطبيعة نهرب إليها ؟ ..

اليوم هربت إلى قرية « غزير » اللبنانية الرائعة . التصقت بجسد الأرض العظيم . تكومت فوق الحشائش والتراب كما في رحم أمي التي لم أعرفها . (آه الأرض ! منذ دهور لم أدفن وجهي في التّراب . لماذا لا نعود إلى التّراب إلا لحظة الدفن ؟) وسمعت صوت الريح وهي تركض عبر السنابل ، وعبر رؤوس أشجار الصنوبر القانية الخضرة مثل سيمفونية مدهشة الصفاء ...

في القاع كان البحر ، وقرميد بيوت « المعاملتين » ، ثم تتصاعد من الوادي رؤوس الأشجار ، وصوت الريح عبر أمواج الخضرة ، صوت الريح عبر أزهار « شقائق النعمان » والوزال . وبصوت الريح اغسل اذني من الأصوات العالقة بها كالصدأ ، كلمات كاذبة واجتماعية ومرائية ومتزلفة وواعدة ، كلمات وأصوات لأشخاص يحدثونني عن أنفسهم وأمجادهم الأدبية والعاطفية وعن الآخرين ، وأكاذيب ، وقصص عمرهم ، وأكاذيب ، وأصوات وأصوات وزعيق فرامل سيارات و « جيرك » و « فليبرز » ... آه تعبت !

بصوت الريح الأزلي أغسل أذنيّ ودماغي ، وبالتّراب أفرك قلبي ، وأعود لأتمشّى على الطريق الفرعية بريئة وهادئة مثل خروف صغير ...

ومرت بي قروية بسيطة لم أرها قط من قبل ، وعلى الأرجح لن أراها أبداً بعد . ابتسمت لي وقالت « بونجور » (أي مرحباً) .

هكذا . كلمة لطيفة مجانية كلها أنس . من يصدق ان ذلك ما يزال يحدث في عالمنا المعاصر ؟ ..

دهشت ... ذهلت ... غاب صوتي ، وحين لملمته لأجيبها كان قد غيبها المنحى ولم تسمعني .

ووقفت أمام الوادي العظيم وصرت أصرخ بملء صوتي : « بونجور » ... « بونجور »

... « بونجور » ! .. والصدى ببغاء .

• • •

حين تقرأون هذه الكلمات أكون بعيدة في لندن ، افتقدوني لأنني سأفتقدكم . بل افتقدوني حتى ولو لم افتقدكم . امنحوني شوقكم مجاناً ... لمسة حنان قبل السفر ... بلا مقابل ... أعرف أن هذا كثير ! لذا ، أريده ...

• • •

أيها الشقي

افتقدني ! ..

١٩٧٣/١٢/٣١

حكمة من كربلاء

(إلى ابتسام عبد الله وأمير الحلو
لذكرى زيارتنا للنجف وكربلاء)

الكتابات العفوية على الجدران ، في الأزقة الشعبية ، تعبر أحيانا عن واقع الشعب ، كما تفعل الصحف .

ولكن الذي يسحرني حقاً هو الكتابة على السيارات .

وفي بغداد تجد السيارات مثل جرائد حائط متنقلة ... لكل سيارة ملاكها الحارس ، وإمامُها المفضل ، وحكمتها الخاصة .

وعلى احدى السيارات خطفت انتباهي هذه العبارة : « أصدقاء الشدة قليلون — لا تحزن فالله معنا . »

وكانت السيارة صغيرة ومتعبة ، وكان واضحاً أنها فقدت دواليبها أكثر من مرة . وأنها تعثرت في الدرب أكثر من مرة ، ولكنها استطاعت في كل مرة أن تنهض من كبوتها لتتعلم درس الحياة الاول : « أصدقاء الشدة قليلون — لا تحزن ... »

هل نملك إلا أن نحزن ؟ هل بيننا من لا تمثله تلك السيارة العراقية الصغيرة ، التي ركضت أمام عيني ذات صباح ماطر بين بابل وكربلاء وكنت أرقبها كما يرقب إنسان نفسه في المرآة ؟ ..

صورة تلك السيارة ألحّت علي طوال الوقت ليلة رأس السنة من هذا العام ..

كنت ، في ما مضى ، أودع سفينة العام السابق الغارقة بتذكر قول أفلاطون : « لا تشغل فكرك بما ذهب منك ، واحفظ ما تبقى منك » . وكنت دوماً أغضب لهذه

الحكمة ، إذ كيف أحفظ ما تبقى مني إذا كان ما ذهب مني هو القلب أو الشهية إلى الحياة مثلاً ؟! . فحين يفقد الإنسان شيئاً هاماً حيوياً ، لا يملك إلا استعادته لأجل أن يحفظ ما تبقى منه !

وهذا العام ، تبخر أفلاطون من رأسي ، وظلت حكمة ذلك العراقي القروي تلح على صدري « أصدقاء الشدة قليلون — لا تحزن ... »

استحضروا معي أيها الأصدقاء أيام شدتكم (هل بينكم من لم يمر بها) . واحصوا أصدقاء الشدة — إن وُجدوا !!! — واحصوا خناجر الأصدقاء المتلهفة للانقضاض على صدوركم لحظة تسقطون ... وأتمنى لكم عاماً بلا سقوط كي لا تكتشفوا كم أنتم وحيدون ... مثلي !

وإذا كان بينكم من هو حائر في أمر الكتابة على سيارته ، فأنا أقترح هذا الشعار : « أنا سعيد ، فيوم سقطت ، لم يَطْعَنّي صديقي » !

من زمان كان المثل يقول : « الصديق وقت الضيق » ، وفي هذا الزمن الرديء يصبح تعديله ليصير « الصديق من كفاك شره وقت الضيق » !

١٩٧٢/٦/١٨

قصة حب

حينما شاهدتها أحسست بما يحس به الانسان حينما يرى حبه الوحيد الحميم بعد فراق أعوام .... كانت متوقفة إلى جانب الشارع ، وكان المطر يغسل عن وجهها الطلاء فيبدو الصدأ وقد بدأ يأكل بعضاً من أطرافها ... كانت بائسة ، مهلهلة ، ومع ذلك استطعت أن أميزها ، كانت تمطر وتكاد تحجب عني رؤية رقمها ... ومع ذلك عرفتها .. انها « الكارمنجيا » البيضاء (الفولسفاكن السبور) التي عايشت جنوني وضياعي طيلة سبعة أعوام بين ١٩٦٤ يوم لقائي الأول بهـا حتى أواخر ١٩٧٠ يوم فراقنـا ... ولا بد لي من الاعتراف بأنهـا يوم التقينا للمرة الأولى لم تكن بيضاء . كانت سوداء اللون ، وليس في بيروت سيارة (سبور كارمنجيا) سوداء سواها . لكن رجلاً أحبني (على طريقته)، وأحببته (على طريقتي) بدّل لي لونها إلى الأبيض يوم تركتها في عهدته ذات مرة ، وسافرت . لم يكن الكرم طبعاً مبعث هذه (الخدمة) . لقد قضى عاماً وهو يحاول عبثاً تبديل شخصيتي وفشل ، وها هو يبدل ما استطاع تبديله مني : لون سيارتي ! وافترقت عنه ، واحتفظت بالسيارة ، لكنها احتفظت بلونها الأبيض لأنني لم أكن أملك النقود لإعادة طلائها بالأسود . وبقيت أنا كاللؤلؤة السوداء، ملعونة ، ومختلفة !!

ولا بد لي من الاعتراف بأنني طوال هذه المدة عاملتها كسيارة فقط ، وكمجرد سيارة آلة ، أشتريها يوم أشاء وأبيعها يوم تتعب كما يبيع السادة عبيدهم متى بلغوا الشيخوخة ... وانني عام ١٩٧٠ وقعت في غرام مرسيدس حسناء صبية قوية ، وبعت سيارتي القديمة ورفيقة أشقى وأغلى أيام عمري دون أي حس بذنب أو شفقة ... فتمد تصادف أن مرضتُ ، وكانت « الكارمنجيا » متوقفة بالصدفة أمام دكان جارنا « الكواء ». وطال مرضي تسعة أشهر (كنت في الحقيقة حاملاً ، ولم يعد لبطني المنتفخ مكان بين المقعد والمقود في سيارتي السبور) ... وظلت السيارة متوقفة ... وجاء ذات يوم أحد عمال البلدية فشاهد أن الأقذار تكاثرت تحتها وحولها وتعذر تنظيف الشارع لعدم تبديل

مكانها ، وجاءت الشرطة البلدية وسجلت محضر (ضبط) بسيارتي بتهمة توسيخ الشارع (!) ثم اعتادت الشرطة البلدية على سيارتي فصارت تأتي كل أسبوع لتحرر بها ضبط توسيخ شارع ، (بعد أمجادنا مع شرطة السير وعشرات الضبوط غير المدفوعة وصلنا إلى محاضر شرطة البلدية !) ، ثم بدأ جارنا « الكواء » يزورنا أسبوعياً ، ليبلغني بالمحاضر المحررة بسيارتي ، وليشكو بلطف من الأقذار المتراكمة تحتها ، بل انه خبرني بأن المطر الذي تسلل إلى داخلها من الشقوق تسبب في نمو الطحالب بداخلها وأنها صارت مزرعة لزراعة الفطر ، وهكذا قررت ذات يوم أن أحمل بطني وأغادر فراشي لأرى ما يدور في مزرعتي — السيارة ، وفعلاً وجدت نباتات نادرة خرجت من مقاعدها وعربشت على « عجلة قيادتها » و « كابحها » وبدأت تغطي نوافذها ، ثم انها صارت مسكونة من قبل بعض الحيوانات « البر — مائية » التي كانت تسبح في الماء المتجمع في قعرها ثم تقفز بفرح على مقاعدها ... وعدت إلى البيت مكسورة الخاطر ، لأنني عجزت عن حشر بطني داخلها ، لقيادتها إلى أحد (الكاراجات) أو مآوي السيارات — العجزة ، وحينما تطوع « الكواء » بذلك ، اكتشفنا أن بطاريتها أسلمت الروح إلى الليل ، وأن السيارة تحولت إلى نصب تذكاري لأيامي المجنونة المسعورة تقطنه النباتات والحيوانات كأنه هيكل منسي في أحد الأدغال .

وكان لا بد من أن يحدث شيء . وقد حدث ، فقد جاء الكواء وعرض عليّ شراءها كي يتخلص منها ! ... وعرض علي مبلغ ٥٠٠ ليرة ثمناً لها (!) ورفضتُ المبلغ ، وأصررت على أن يدفع لي ٤٥٠ ليرة كي يغفر لي خطاياها !...

واختفت السيارة ولم أحزن لأجلها لأنني كنت مشغولة بأوجاع الحمل والولادة .. ومرت الأيام وخرج طفلي إلى الحياة ، فتوقف رحمي عن العمل وعاد قلبي وجسدي إلى الحياة ... والتقيت بها صدفة بعد طول غياب ... في مصابيحها المكسورة نظرات عاتبة ، والمطر الذي يقطر منها يشبه دموع الأسى ...

وتفجر في قلبي الحب العتيق ، والذكريات كلها ، والحكايا كلها ، كل باب فيها يروي لحظة جنون ، ولحظة نشوة ، وكل مقعد فيها أطبق شفتيه على آلاف الأسرار . واقتربت منها ، وفتحت بابها ، أحسست أنها ما تزال سيارتي أنا ، ولتذهب عقود البيع والشراء إلى الجحيم ...

سيارتي أنا ، كما يصرخ العاشق بأن حبيبته هي حبيبته هو ، دون أن يبالي بمن

زوجوها له قسراً ... كانت المفاتيح بداخلها ... ووجدتني أستقلها ، وأمضي بها بعيداً إلى الجبال كما كنت أفعل ، ووجدتني أفتح نافذتها وأمد برأسي منها وأصرخ بملء صوتي في الفضاء الرحب كما كنت أفعل ، ووجدتني أهيم بها في الدروب بقية الليل ثم أغفو على مقودها عند شاطيء البحر كما كنت أفعل ، ووجدتني مع خيوط الفجر الأولى أعيدها إلى حيث وجدتها أمام دار صاحبها ... وأترك المفاتيح بداخلها كما وجدتها ... وأمضي بعد ذلك اللقاء تتأكلني غصة موجعة ... وتساءلت : ترى هل من عادة (صاحبها) الجديد أن ينسى المفاتيح بداخلها ؟ ... وهل سيلحظ قضاءها الليل معي وخيانتها (الزوجية) له ؟ ...

مع مساء اليوم التالي عدت إليها ...

كانت مغلقة بإحكام ، وقد أوصدت أبوابها كلها من دوني . تراها فعلت ذلك بنفسها ؟ أم أن (مالكها) الجديد يقسرها على ذلك ؟ ... أم أنها تحاول أن تقول لي ببساطة : ان شيئاً لا يتكرر ... (ولا نستطيع أن نشرب من النبع مرتين) ؟ أم ... ؟ أم ؟ ... أم ماذا ؟ ...

في اليوم التالي قررت أن كل شيء نحبه يجب أن يتكرر ، وأن علينا بطريقة ما أن نشرب من النبع مرتين ، وأن نبعث الحياة في حكاية حب كنا نتوهمها ماتت ... وقررت أن أستعيد السيارة بأي ثمن .

ذهبت اليها ، فلم أجدها

سألت أهل الحي جميعاً ، فقالوا انهم لم يروا طيلة حياتهم سيارة متوقفة في شارعهم كالتي أتحدث عنها ! ..

ذهبت إلى الكواء لأسأله عن اسم الشخص الذي اشتراها منه ، فوجدته قد مات في الليلة السابقة .

سألت أرملته ، فقالت انها لم تسمع بالسيارة ولا بي .

سألت سكان البناء الذي كانت السيارة متوقفة أمامه ، فأشاحوا بوجوههم عني ، وأقسموا أنهم لم يسمعوا بشيء كهذا ..

لكنني لن (أيأس) ، وأقسم أنني سأشرب من النبع مرتين بطريقة ما ! ! ...

ماتــــوا

ما دام من واجبنا أن نتحدث عن فضائل الأموات ،
دعونا نقسو عليهم ما داموا أحياء ! ...

— جون سلون —

إنك لا تعي حقاً معنى الموت إلا حينما تعرف
الحب .

— كاثرين هثواي —

يجب أن نبكي حين يولد الناس ، لا حين يموتون .

— مونتسكيو —

ما دامت حياتنا في هذا العالم البائس كما هي ،
فإن الموت هو على الأرجح أول مرة نتذوق
فيها طعم الحرية .

— اسحق روزنفيلد —

١٩٦٤/٢/١٧

فلنعترف

يوم صدر لمى جبور كتابها « فتاة تافهة » تعرضت الفتاة لحملة عنيفة ، وهوجمت بقسوة . الذين لم يهاجموها صمتوا . لم يتقدم أحد للدفاع عنها .

ومرت العاصفة . صمدت لها ابنة الثامنة عشرة ربيعاً وظلت تكتب . وبدأنا نقرأ لها قصصاً قصيرة جيدة، براعم الموهبة واضحة فيها ، وخمرة تمزّق أصيل تبشر بالتعتق بين حروفها .. وكانت قصة « الخلود والحذاء الحديد » وغيرها .. أعجب بها عدد كبير من الكتاب ، سمعتهم يطرونها شفهياً ، لكن أحداً لم يكتب كلمة ، لم يعبر عن رضاه كما سبق له أن عبر عـن سخطه . أنا أيضاً لم أكتب ، فقد كنت مثلها أخط السطور الأولى في درب عطـائي ، وأواجه قدعاً شبيهاً بالذي تواجهه (ها قد بدأت أرشو ضميري وأفتش عن مبررات لصمتي !).

وماتت مي .

إني أراها تتأملنا الآن بعينين زجاجيتين يطل منهما حنان ساخر مترفع يشبه الشفقة ، وكبرياء لا مبالاة لا يشوبها العتب ، ونحن نتدافع كالأطفال المذنبين الخجلين لنكتب عنها .. وأكثر من ثلاثين مقالاً عن (الأصالة المهدورة) يبحثون عن مقرها .. كتب أنسي الحاج ووليد اخلاصي ويوسف حوراني وجميل جبر ولور غريب ونور سلمان وسهيل مطر وعبد الكريم أبو النصر وأمين الداعوق .. و .. و ... وأنا أيضاً ! بكيناها بصدق .. وبأنانية .. باخلاص ، وبمرارة ورعب .. كتبنا .. بعد فوات الأوان .. فطفلة اللاشيء قد سبقتنا إلى (هناك) ، وحيدة ، وليس على شفتيها ابتسامة رضى .. لم نمنحها أيام كانت ترتعد برداً جمرة تشجيع واحدة .. لم نشتل في درب طموحها زهرة واحدة .. لكننا اليوم نغمر جثتها بأكوام الورود والأكفان .

ما معنى ما حدث ؟ ..

هل هو افتقارنا إلى الموضوعية في النقد ؟ .. افتقارنا إلى الجرأة في ابداء الرأي ؟ افتقارنا إلى (الرأي) ؟ عجزنا عن تكوين قناعات ندافع عنها ؟ أنانيتنا ؟ تضاؤل احساسنا بالمسؤولية تجاه عطاء الآخرين ؟ استهتارنا واطلاقنا الأحكام السطحية السريعة دون أن نكلف أنفسنا عناء التدقيق ؟ حاجتنا إلى موضوع مأساوي نتخذه قالباً نسكب فيه أحزاننا الفردية ومخاوفنا الشخصية ؟ تضامننا مع مي ضد العدو المشترك « الموت » ؟ .. أم أن كل ما يملكه أحدنا للآخر هو كفن واكليل ومرثاة ؟ ..

ان نظرة محايدة إلى العالم حولنا تدلنا على أن حادثة مي ليست فريدة . لقد تكررت أكثر من مرة في أكثر من مكان وزمان .

لقد هاجم النقاد « ملفيل » لما ظهرت رائعته (موبي ديك) واعتبروها فشلاً ذريعاً ، لكنها بعد موته صارت (بقدرة ناقد) الملحمة الأمريكية الأولى .. وابسن ، الكاتب المسرحي الجاد ، اضطر إلى مغادرة بلاده هرباً من ثورة مجتمعه على مسرحيته « عدو الشعب » فاحتضنته أرض غريبة وقدرته .

ما حدث لمي هو جزء من قدر الأصالة حينما تواجهها الطبيعة البشرية المشتركة بين الناس جميعاً .. ولعل من بعض التعليل لهذا كله هو أنه (لا كرامة لنبي في أرضه) .. وعلى (الأنبياء الصغار) أن يحملوا صليب الأصالة وشمساً من جمر ، ويمضون في أسواق العمر تحوطهم اللامبالاة والاساءات ليقطعوا أطول شوط ممكن ، حتى إذا ما سقطوا ، ورحلوا إلى (الهناك) وطننا الأم ، ولم يعودوا من رعايا عالمنا ، بكيناهم بمرارة وبحرقة .. وبعد فوات الأوان .

مي . إني خجلة .

٦٩/٩/٥

أسطورة البدو

تقول الأسطورة العربية :

ان قوم لوط ظلوا أعواماً ينظرون إلى الخلف بحسرة وأسى ، يحدقون دونما جدوى في ماض ذهب إلى غير رجعة ، وأيام كانت ولن تعود (وهل لماض أن يعود ؟)

ولذا عاقبتهم الآلهة على حماقتهم تلك . حولتهم إلى أصنام من الملح ملوية الأعناق إلى الوراء ... وحكمت عليهم بأن يظلوا كذلك إلى الأبد ...

* * *

رغم أن هذه الأسطورة هي ملحمة عصري التي أحتمي بها من التحول إلى تمثال من الملح ملوي العنق إلى الوراء ، لا أملك اليوم إلا أن أروي لكم حكاية من الماضي الذي أحرص دائماً على ردم مداخل كهوفه .

وعذري في صفحة الماضي تلك ، التي سأنشرها أمام أعينكم ، هو احساسي المرير بأن رائحة الحقيقة المعاشة ، ما تزال تنبعث منها أكثر مما تنبعث من حبر دواتي ... وأن تلك الحكاية رغم رحيلها عبر منحنى الأيام ما تزال ألصق إلي من رئتي ! .. وأكثر واقعية وحتمية من تنفسي !

* * *

لندن . يوم ما . شهر آب ١٩٦٧

عام من الركض تحت المطر في لندن ، في شوارع مفروشة بالثلج والعتمة والغربة ، والشمس لا تطلع إلا عبر رسائل أصدقائي إلي ...

رسائلها هي بالذات .

سميرة عزام . الأديبة الكبيرة ، التي وقفت إلى جانبي يوم وقف عالمي كله تقريباً

ضدي ، وشجعتني منذ وصولي إلى بيروت من دمشق ، قولاً وكتابة وكانت نِعْمَ الأديبة المشهورة التي تساعد من تؤمن بموهبتهم .

ذلك اليوم كنت أتوقع أن تصلني رسالة منها ... وحدها لم تكن تخيبني . كانت دقيقة في مواعيد رسائلها دقة البريد البريطاني . لكنني لم أجد شيئاً ذلك الصباح ، منها أو من سواها ! !

داهمني في ذلك الفجر الرمادي غم قاتل . أحسست أنني سأصاب بالجنون إذا بقيت وحيدة في غرفتي ، وإذا لم أهرب إلى الشارع ، أركض أو أصرخ ، أو أستقل أول طائرة إلى بيروت . وفضلت الركض .. وهربت من غرفتي إلى الشارع ، مسعورة .

كانت الساعة ما تزال السادسة صباحاً ، ولدي موعد لتسجيل حديث أدبي في « B.B.C. » في العاشرة .. اذن أمامي أربع ساعات من الضياع .

لم يكن قد انقضى على الخامس من حزيران أكثر من شهر ، وكانت رسائل سميرة تؤنبني ، وتنعتني بالجبن لهربي إلى لندن بدلاً من البقاء في الوطن المهزوم ، والعمل لمحو العار .. ربما لذلك خشيت أن تكون قد كفت عن الكتابة الي ، وحكمت على صداقتنا بالاعدام (وكانت صداقتي بها أعمق وأغلى علاقة انسانية ربطتني برفيقة حتى ذلك التاريخ) كان صمتها إدانة . احتقاراً . اتهاماً . رصاصة مطلقة من بيروت إلى صدري في لندن !

قبل العاشرة بدقائق بلغت دار الاذاعة وأنا ألهث مثل كلب صيد . اتجهت مباشرة نحو الاستوديو « A 24 » حيث التسجيل . على باب الاستوديو التقيت صدفة بالفلسطينيين الأستاذين حسن الكرمي وسعيد العيسى وكان في عيني كل منهما جنازة . سألت : ماذا بكما ؟ رد الأستاذ سعيد العيسى بصوت دامع : لا . لا شيء يهمك بالذات . تلقينا للتو من بيروت نبأ وفاة سميرة عزام . هل تعرفينها !

(أعرفها ؟ يا إلهي ! ينعون إلي موت بعضي ، ويسألونني فيما إذا كنت أعرفها ؟ أعرفها ؟ يا شيطاني ! لها وحدها عريت وجهي وعالمي . احترمتها كفلسطينية ، عشقتها كأديبة ومفكرة . قدستها كصديقة . ماتت !! لن أصدق . لن . لن ؟!) » .

كالمسعورة انطلقت أركض أركض أركض .

كل ما أذكره أنني غسلت كل شيء بتخدير ما . اختلطت الأشياء

هبطت من التاكسي أمام باب بيتي مع فجر اليوم التالي . ولاحظت أن في صندوق البريد رسالة وكانت المفاجأة المروعة !! انها رسالة منها . من سميرة عزام . انه خطها المنمنم الذي أعرفه جيداً . لم أصدق . قلبت الرسالة وقرأت : المرسلة : سميرة عزام . ص . ب : ٤٠٩٢ — بيروت !! اذن بعثت بسطورها إلي قبل وفاتها ، ورحلت حنجرتها ولم يبق إلا صرختها في مظروف ! ولم أجرؤ على فتح الرسالة . قضيت ساعات أتأملها دون أن أجرؤ !! كان هنالك شيء مروع .

لا أدري بالضبط ماهيته ! ربما وعيت بطريقة في غاية السذاجة والواقعية معنى كلمة : مـــوت ! ..

ماتت ، أي صارت نهائياً مجهولة العنوان ! .. أن أقرأ رسالتها يعني أن ألتقي بها بعد وفاتها ، ولكن ، لمرة واحدة وأخيرة تموت بعدها ثانية !! ..

* * *

بيروت . يوم ما .. آب ١٩٦٨

أمام مائدة رخامية كالمشرحة وقفت تمثالاً من الملح . المفروض أن سميرة داخل هذا القبر ، لأن أمها ، السيدة الجليلة المكفنة بالسواد ، كانت تنتحب مع شقيقتها غاليتي سهـــام .

كلتاهما عاجزة عن اللقاء بسميرة ولو لمرة واحـــدة أخيرة . كل الناس عاجزون عن ذلك ، إلا أنا !! ..

فأنا أملك الرسالة التعويذة ولم أقرأها بعد . الرسالة .. رسالة لها مفعول استحضار الأرواح .. اذ أستطيع استحضار سميرة من عالم الموت لدقائق فقط تنتهي مع انتهائي من قراءة آخر سطر في الرسالة التعويذة ، وبعدها ستمضي ثانية إلى الأبد ، دون أن أقوى حتى على الرد أو ايصال صوتي اليها .. أن أستحضرها يعني أن أدفع الثمن غالياً لأنها ستموت ثانية .. تذكرت أكثر من أسطورة مروعة عن بشر فجعوا بموت من أحبوا وتمردوا على فكرة الموت من حيث هي فراق نهائي عن أحبابهم ، وتوسلوا إلى الآلهة كي تبدل قانون الموت ، وتسمح لهم ولو بلقاء واحد مع الراحلين ..

تذكرت مأساة **أورفيوس الاغريقية** ، ذلك الذي كان يطرب لغنائه الحجر والريح

والغابات والوحوش وحتّى الآلهة .. والذي بكى موت حبيبته حتّى رقت له الآلهة ، وسمحت له باستعادتها وكان أن ماتت مرتين . وتذكرت **الأسطورة الأوروبية .**

تقول الأسطورة :

أم ثكلى فقدت أولادها الثلاثة . كان حزنها فوق طاقة البشر على الاحتمال ، وفوق طاقة الآلهة على اللامبالاة .

لذا ، أباح لها إله الموت لقاءهم لمرة واحدة فقط طيلة عمرها ، تختار توقيتها بنفسها . يكفي أن تحرق جلد القرد القديم الذي يضمه بيتها العتيق حتّى يحضروا . وذات ليلة غلبها شوقها فأحرقت التعويذة وحضر أبناؤها ، وغلبها ضعفها الانساني فانتحبت وسألتهم عن أحوالهم ، وأين يعيشون ، وما هو عنوانهم ، وبكت وانتحبت ، وشيئاً فشيئاً ، اختفوا ، مضوا بلا عودة . ماتوا أمام عينيها مرتين . مرتين !

لذا تجلدت . كتمت سر الرسالة . ضممت أسرة سميرة إلى صدري ، وغادرنا المقبرة ، مثل أغصان شجرة (شلعتها) العاصفة !

* * *

بيروت ـــ ٨ آب ١٩٦٩

أفتقد سميرة كما لم أفعل قط . أريد أن ألتقيها الآن .

الأسطورة الاغريقية لا تحمل أي عزاء . الأسطورة الأوروبية كذلك والعربية أيضاً . أذكرها ، فلا أجرؤ على فض الرسالة واستحضار سميرة دقائق ، ثم أدفع ثمناً (فاوستياً) للقاء أخير وحيد عابر تموت بعده سميرة مرة ثانية ..

في فورة جنون ركبت سيارتي وانطلقت أبحث عنها في الشوارع ، في الشواطىء ، في الجبال ، كنت أصرخ باسمها فأسمع صوتي مثل مواء قطة دهستها للتو عجلات قدر مجهول ..

وقررت ..

سأقرأ الرسالة وليكن ما يكون . وبدأت أهبط من مرتفعات صنين إلى بيروت ، وقررت أن أرتب غرفتي وأعد لسميرة السجائر التي كانت تحب ، وكأساً من مشروبها المفضل ، وأجلس في المقعد المواجه لمقعدها الفارغ وأقرأ الرسالة .

بسرعة مجنونة كنت أركض إلى اللقاء المروع المسحور . أخيراً وصلت إلى بيروت .. في شارع المعرض حيث يتكوم على الرصيف العمال الفلسطينيون والسوريون الباحثون عن عمل . لمحت رجلاً بدوي الوجه غارقاً في النوم على الرصيف بانتظار طلوع (الضوء) وحضور السماسرة ولقمة العيش .

ذكّرني وجهه بأسطورة بدويـــة عن الموت .. تقول الأسطورة (التي ربما حولها أكثر من أديب إلى قصة) : عاد بدوي إلى خيمته فوجد زوجته تندب ابنهما الوحيد . كادت تجن لمصرعه . تريد أن يعود بأي ثمن . قال لها زوجها بهدوء متجلد : الأمر بسيط . اطبخي له أكلته المفضلة وعندما ينتصف البدر ، يعود ويتناول عشاءه معنا ولا يرحل أبداً ! ! ..

قالت : أهذا كل شيء ؟ علينا فقط انتظار استدارة البدر ؟ رد زوجها حكيم العشيرة : أجل ! هنالك شرط واحد بسيط ، يجب أن تطبخي له الطعام في قِدْرٍ ذات مواصفات معينة .

– ماذا ؟ قِدر من ذهب ؟

– لا . أية قِدر صدئة ، على أن تحضريها من بيت لم يعرف أهله موت أحد أفراد أسرتهم ، ولم يسبق أن طبخ فيها لمأتم .

وذهبت البدوية ، وطافت بخيام المضرب خيمة خيمة ، ولم تجد خيمة أو داراً إلا وقد فقدت عزيزاً ، وطبخ في قدورها لأكثر من مأتم .. وظلت أياماً تدور من خيمة إلى أخرى ، وكلٌ يروي لها مأساته ، وانتصف البدر ولم تجد قِدراً واحدة لم يطبخ فيها لمأتم أو بيتاً لم يفجع بعزيز ..

وفهمت البدوية .

وفهمت أنا . استطاعت الأسطورة البدوية أن تقول لي أكثر مما قالته الأسطورتان الأوروبيتان .. اقتنعت . وأحرقت رسالة سميرة دون أن أقرأها ! .. فأنا لن أحتمل أن تموت مرتين .

ولن أهدر وقتي في قرع بيوت بيروت في ذلك الفجر الحزين بيتاً بيتاً بحثاً عن قِدر الخلود ، الذي لم يطبخ فيها قط لمأتم ، والجدران التي لم تسمع مرة ندبة ثكلى .

تباركت حكمة البدو .. وإلى لقاء قريب جداً وطويل جداً يا سميرة ؟؟ هل تبقى لقـــاء ؟؟ ..

٦٦/٢/١٤

موت القمر

ترقص أسلاك البرق . ترقص حروف المطابع : القمر لم يعد قمراً . انه كالأرض ، مجرد أرض . أرض . طين . غبار . معادن . مستنقعات . وحل . وحل .

وتزغرد الآلات الحاسبة .

ترقص تجاعيد وجوه رجال السياسة : القمر قاعدة عسكرية استراتيجية جديدة .

يلعق رجال الأعمال شفاههم بعد ابتلاع أقراصهم المهدئة : القمر منجم جديد . فحم . معادن . ذهب . ذهب .

يمسح مدراء شركات السياحة نظاراتهم : القمر ... سياحة واصطياف ... رحلات منتظمة ..

يتعانق علماء السكان : أرض جديدة ... يسقط تحديد النسل ... وليمت (مالتوس) كمداً وقهراً ..

يركض المسؤول عن ضياع قنبلة أميركا الذرية في حقول البندورة في أسبانيا صارخاً : وجدتها وجدتها .. سنجري تجاربنا الذرية هناك ..

تربت سيدات الجمعيات النسائية على شعورهن المصبوغة بارتياح كبير ، فقد انتهين من غوث أيتام وجياع الأرض ، وها هو حقل جديد ، والبركة في أيتام القمر ..

ويحك هتشكوك صلعته : فيلم رعب جديد هناك .. وتزين دار بيير كاردان احتفالاً : عرض أزياء .. في القمر ..

وتحزم الراقصات رياشهن ، وتُغلق الأقفاص على حيوانات السيرك وتُلملم الأقنعة ، ويشحذ القراصنة والجياع سكاكينهم ، ويجمع رجال الدين والمبشرون كتبهم

ومنطقهم ، واللاجئون السياسيون أمجادهم ، ويهرولون في موكب هستيري إلى الفريسة هناك : القمر ...

صوت ضعيف في هذه الجوقة الكبيرة المصفقة ، أبرق محتجا .. انهم الشعراء ، أحفاد عمر الخيام ... أبرقوا احتجاجاً على اغتيال فارسهم الأبيض العتيق .. القمر ..

وضحكت منهم صحف الغرب ، وضحك من جزعهم المنطق الغربي العصري .. فهو لا يستطيع أن يفهم حكايتنا مع القمر طيلة أجيال ...

أما نحن فنستطيع أن نفهم لأن لنا معه حكاية طويلة ... فقد قتل فارسنا الأبيض العتيق ... سقط نهائياً من ملكوته الأميري حيث ظل طيلة أجيال ، رمزاً لعوالم عاطفية ميتافيزيكية شرقية ثرية ..

من منا لم يكن القمر ذات يوم جزءاً كبيراً من روحانياته واثيريته ورغباته الحميمة وتراثه الثقافي العتيق ، وحكايا طفولته ، ووتر شعرائه المفضل ؟ ..

ان مصرع القمر في هذا القرن دراما صغيرة سرية ، وتحمل أهم خصائص المأساة الحديثة : تصفيقنا لها ! ..

انتهى ، الفارس الأبيض العتيق .

برقية احتجاج لا تجدي .. الأمل الوحيد الذي تبقى هو أن لا نتبدل ، وأن لا نخون رموزنا ولو خانتنا ..

ذات ليلة ، لو رحلتُ إلى القمر ، وبقدميّ دست الوهم الفضي الذي صار طيناً ووحلاً ، فسوف أبحث عن عريشة ياسمين كتلك التي كانت في بيتي في دمشق ، وسوف أستسلم لليل في أعماقي ، وسوف أتأمل الكوكب الاخر « الأرض » مضيئاً نائياً فضياً ، وسوف أشير إليه وأهمس بالحماس نفسه : ما أحلى هذا القمر الآخر ! ..

١٩٦٨/٥/٣

لن نصدق أنك لن تعودي !

قالوا : رجا * رحلت .
كيف ؟؟ ...
فجأة ، كما تحترق الشهب .
بسرعة ، كما يلتمع البرق
بهدوء ، كما ينام الأطفال .
بسلام ، كما يستسلم قديس للصلب .

* * *

رحلت؟ ...
لن أصدق .
هنالك مدية انغرست بسرعة ووحشية في أحشائي ، نصلها بارد ومسنن كالمنشار .
قررت :
لن أصدق ، فأنا امرأة عاجزة عن البكاء .

* * *

رحلت ؟ ...
إلى أين ترحل الصبية ؟ ...

بالأمس كنا معاً ... ضحكنا معاً في باحات الجامعة الأميركية ، وتفصدنا عرقاً أمام أوراق الامتحانات ، وصفقنا ساعة خرجت رجا تحمل شهادتها الأولى وتقول بعناد محبب : سأتابع دراستي ...

---

* المرحومة رجا حجار ، رفيقتي بالجامعة .

بالأمس كنا معا ...

رجا الأستاذة الطالبة ...

رجا ، ابنة الشوف* رافقتني إلى الشوف لأراه .. وأعرفه .. وأكتب عنه ...

وفية لأرضها ، كان حزن زيتون أرضها ، يتجمع في عينيها ...

وفية لقومها ، كانت فجيعتها بتخلف البعض تثقل على صدرها ...

وفية لينابيع جبلها المهدورة ، كان عزمها على العمل نزفاً من الغضب تتفجر نيرانه في شرايينها .. رجا لم تعرف أسواق التفاهة والغرور والرياء الاجتماعي .. بعيداً عن ذلك كله عاشت ، وبعيداً عن ذلك كله رحلت ..

* * *

مرعب اختفاؤك رجا ... أن تموتي عبارة نرفض — نحن الذين أحببناك — أن نفهمها ...

ولذا بحثت عنك والرفيقات في كل مكان ... وهتفنا لك إلى الرقم المعتاد وسألنا عنك باصرار ! .. وحينما رد صوت ملتاع مفجوع : من ؟ ... أدركنا انك ولا بد رحلت حقاً ..

قولي شيئا ...

لا نستطيع أن نصدق انك لن تعودي ...

* * *

أحصنة معصوبة العينين نركض في سباق أرعن ... نركض ... لا ندري من نظّم السباق ...

لا نذكر من أين انطلقنا ... ولا نتساءل ... ولا ندري إلى أين ...

ثم فجأة ... يتساقط الذين أحببناهم ورافقناهم في أكثر من شوط ... يختفون ينسحبون من السباق الغبي ..

نذهل .. نصدق .. نرفض أن نصدق .

---

* الشوف : منطقة في جبل لبنان .

تنمو تحت جلدنا آلاف الأسئلة المنسية حقولاً من شوك .. لماذا ؟ .. إلى أين ؟ .. وماذا بعد ؟ ..

لذا لما انسحبت يا رجا ،
لما اختفيت ،

كان لا مفر من أن أقف ...

أصرخ بملء فمي بصوت أخرس :
لا .
لن نتابع سباق الغباء ... نريد جواباً .

أين رجا ؟ أحقاً لن تعود ؟ ...

* * *

نموت ؛
نموت مرة ، كلما أبحر بعيداً وجه أحببناه ... بلا عودة ...

نموت مرة ،
كلما وعينا ضعفنا البشري أمام ارتحال سيكون ذات يوم ارتحالنا ..

نموت مرة ،

كلما شاهدنا حقيقة وجودنا داخل مرآة غياب إنسان كان من بعضنا ...

نموت أكثر من مرة ، بأكثر من أسلوب خلال رحلة السباق الغبي تلك ...

الذين يسبقوننا إلى الرحيل ، تراهم يشفقون علينا ؟ يرثون لحالنا ؟ لاهتمامنا بتفاهات عمرنا الزائل ؟ لانكبابنا على أيامنا كما لو أنها لنا ؟ ..

رغم وعينا لذلك كله ..

لا نملك إلا أن ننزف حروفنا .. وتترتمي كلمات العزاء في قلب الغابة السوداء الغامضة ، مطروحة على التراب ، والريح تسكت ، وحتى النهر يكف عن التدفق ..

لا نملك إلا أن نموء حزناً ، كما تنوح أجيال من العرافات والمردة أمام قدر مبهم عبثاً يقاوم ..

لا نملك إلا أن نسقط اعياء ، نتفصد ذلاً ، كيف لماذا وأين اختفت الصبية العذبة .. وكيف ماتت قبل أن تعيش ؟ ..

* * *

رجا ،

قولي شيئاً بطريقة ما ...

إلى أين يرحل الذين أحببناهم ؟ ولماذا ؟ ..

وماذا بعد ؟ ...

رجا ،

خبرينا ،

إلى أين تسقط الشمس حينما تتجاوز أفقنا المنظور ؟ ..

قولي : أين أنت ؟

١٩٦٦/١/١٠

احتجاج على الموت*

أي احتجاج مرير تحمله الأسطورة ...

في أحد البلدان ، حينما يموت رجل ما ، يدفنون زوجته معه .. وفي احتفال جماعي مهيب ؟ ..

لمـــاذا ؟ ..

للمرة الأولى تقفز كلمة « وحشية » كجواب عفوي .. ولكن ، هنالك شيء أعمق من الوحشية في هذا الدفن العلني الكبير ..

هنالك احتجاج على الموت بالذات ..

احتجاج اتخذ صورة الرفض : رفض التصديق !

إنها محاولة لرفض تصديق ، ان هذا الرجل لما مات ، انتهى .

هكذا بكل بساطة ، وبلا مبرر ، ودون أن يُستشار ! ..

قبل أيام كان مثلهم جميعاً ، زوجاً ورجل أعمال ، ثم .. لا شيء .

إنهم يرفضون تصديق فكرة الموت كنهاية ، كعدم ، لأن في ذلك ، ما يزلزل أركان حياتهم كلها ، ويقودهم بالتالي إلى التساؤل : إذن لماذا نعمل ، ونخطط ، ونتشاجر ، ونركض خلف الشعارات ، إذا كان كل شيء سوف يتوقف ذات يوم فجأة دون أي تبليغ ، أو تبرير ..

وأية عدالة نستطيع أن نوجد في عالمنا ، عن طريق تشريعاتنا ، وحروبنا ، إذا كانت

---

* كتبت إثر موت صديق صحافي .

« اللاعدالة » و « العبث » ، هما أساس وجودنا منذ البداية حتّى النهاية ..

منذ البداية ، منذ لحظة الولادة ، لا نختار موعدها .. لا أحد يستطيع أن يختار العصر الذي يريد أن يعيش فيه . وأوصاف أسرته ، ولا دينه ، ولا جنسيته .. إننا نولد ، ونكتشفها فيما بعد كقدر ، وكجزء من مسلماتنا التّي تتبناها الأكثرية دون أن تكلف نفسها عناء إعادة النظر .

وننطلق في السباق الكبير ، وكلما سقط انسان ، رأينا في سقوطه سقوطنا المحتوم ، وأدركنا أية « لا عدالة » تخطط ، حينما تهوي الشهب بلا مبرر ، ولا تخيير ..

هذا هو السؤال الكبير الذي لا يجرأون على مواجهته .. إنهم مع ذلك يريـــدون الاحتجاج ، وبطريقة بدائية جداً .. لذا فانها تتخذ صورة عمل وحشي ، ما هو في صلبه إلا محاولة تستّر جماعية ، على الضوء الكاشف المرعب ، الذي يلقيه موت إنسان ما ، على حياة الذين لم يموتوا بعد ، موضحاً لهم حقيقة وجودهم وماهيته وتفاهته ..

* * *

وصورة أخرى من صور رفض البشر لفكرة الموت مارسها الفراعنة ..

احتجاج بدائي آخر ، اتخذ من « التمويه » تعبيراً عملياً له ، ومن الدين قناعاً ..

فقد كانوا يدفنون الميت ، في بيت ذي طابع جديد (الأهرام) ، ومعه كل حاجاته الحياتية من ثياب وأغذية وأثاث .. وهم لا يفعلون ذلك من أجل را حته وسلامه كما يظنون ، وانما من أجل راحتهم هم وسلامهم . وما ذاك ، إلا محاولة منهم لإقناع أنفسهم بأنه لم يمت ، وإنما انتقل ليمارس حياته بصورة جديدة .. وبالتالي فالحياة ليست تافهة ، والموت ليس هناك بالمرصاد ، والعالم لا تحكمه آلهة ظالمة أو لا مبالية كما وصفها شكسبير فيما بعد :«اننا لا نعني للآلهة ، إلا ما يعنيه البعوض للأطفال العابثين :

في قتلنا رياضتهم المفضلة !»..

هذا كله تفجر على صفحة عيني حزمة من الألعاب النارية حينما علمت بأنه مات ! مـــات ! ..

لم يعد هناك ليرد على هاتفه ، أو يتلقى التهاني بانتصاره الأخير ! .. أو يقول لي : مرحباً !

إذن سقط جواد أصيل جديد في السباق العتيق .. المعركة ..

كم سيحسها الآن كل من اشترك بها تافهة ، مجرد لعبة من جملة اللعب والسباقات التي يلهيهم القدر بها عن الحقيقة المرعبة : ان يداً غامضة حملتهم كالدمى ذات يوم ، وفرضت عليهم مسرحهم ودورهم ، ولم يكادوا يكتشفون معادلة عمرهم المفروضة عليهم في تذكرة الهوية (الاسم ، العمر ، الدين ، الجنسية) ولم يكادوا يتحركون وفقاً لها ، حتى تمتد اليد الغامضة ثانية لتلتقطهم عن المسرح ، وتمضي بهم إلى حيث لا يدرون ، بلا مبرر .. بلا إنذار ..

أي عبث هي الحياة ، أية تفاهة .

وأي انتصار ، أن نعرف هذا كله ، ونتحدى ، ونتابع اللعبة ! ..

أي انتصار ..

أن نعمل ، رغم أننا نعرف سلفاً أننا مهزومون في جبهة الموت المجهولة ، التي لم يعد منها أحد ، ليخبرنا عما يدور هناك .

وحتى سيزيف الأسطورة ، الذي أصر على أن يعرف ، حل عليه العقاب لأنه تمـــرد .

* * *

إذن مات ..

وكما تتوهج الشهب الساقطة في إضاءتها الأخيرة ، نرى في توهجه الأخير حقيقة ومعنى وجودنا ..

وندرك أية مأساة يفجرها موت أخ كفاح في هذا العصر .. فنحن اليوم لا نملك إلا أن ندرك معنى ذلك ..

لقد فقدنا القدرة على التمويه النفسي ، وفقدنا القدرة على « رفض التصديق » البدائي ، وفقدنا القدرة على تعظيم أنفسنا انطلاقاً من انتصاراتنا العلمية ، فكل صاروخ نطالقه إلى الفضاء ، ليس دليلاً على عظمتنا ، بقدر ما هو دليل على صغرنا وتفاهة شأننا في هذا الوجود الكبير والكون الكبير المرعب باتساعه وضخامته ... والذي يكشف لنا العلم مدى ضآلتنا فيه .

البدائي سعيد ، إنه يعتقد أن الجبل إلى يمينه هو أول الدنيا ، والجبل الآخر إلى يساره هو آخرها ، وما فوقه من نجوم وكواكب هم أربابه ، وقوى الطبيعة بعضها شرير وبعضها خير ، وفقاً لانتفاعه منها .. وهذا كل شيء ..

وإنسان العصر مفجوع معقّد ، حضارته المادية تكشف له مدى بؤسه الروحي ، بعد أن فقد الايمان ولم يجد البديل ..

إذن مات !

أي عار ،

أن يجد أحدنا القدرة على التخدير أو التمويه ، هارباً بذلك من مواجهة الحقيقة التي يحملها موته : تفاهة الحياة ..

وأي انتصار ..

أن ندرك هذا كله ، ونتحدى رغم ذلك ، ونتابع اللعبة محافظين على قيمنا ، لأنها تنبع من داخلنا نحن ، لا من قوى خارجة عنا فقدنا إيماننا بوجودها ..

وأية فجيعة ..

أن يكون الأمر كله هكذا !! .. ولا شيء ..

نموت ، احدى ميتاتنا

الانسان المحتضر يكون على الأرجح قد فقد من ذاته خلال حياته ، أكثر مما هو مقدم على فقدانه بالموت ! ...

— نيتشه —

الموت يهمس باستمرار في أذني : عِش ، فأنا في طريقي إليك .

— سير أوليفر هولمز —

حينما تتصالح مع الموت ، وتتقبل فكرة موتك الشخصي ، تصير حراً لتحيا . تكف عن المبالاة بسمعتك ، وما يقوله الناس عنك ، ولا تبالي بغير الحياة من أجل يقين تؤمن به .

— سول ألنسكي —

قلوبنا الخافقة ما هي إلا طبول تقرع أنشودة الموت ونحن في طريقنا إلى قبورنـــا .

— هنري وادسوورث لونغفيلو —

١٩٦٤/١٢/٧

بعد أن احترق حقل الزيتون !

ربما لأن الليلة مطر . تمطر في عظامي، تمطر بين جلدي ولحمي ، تمطر في حلقي ..

ربما لأن الباخرة العالقة بين الصخور منذ أسابيع ، تغرق الآن وحيدة .. ربما لأنني لما شاهدت صباحاً واجهة مخزن الألعاب ، وقد عُرِضتْ فيها عشرات الأقنعة الملونة ، أحسست بالخوف وأنا أحاول أن أتذكر أين رأيتها ، وكيف .. ثم تذكرت كيف ، وأين ، وأنا أتأمل الوجوه حولي في الصف بالجامعة والمقهى والشارع طيلة بقية النهار .. وفي المساء ، أحسست بأقنعة واجهة مخزن الألعاب تهاجمني ، تتدفق من بطاقة دعوة لإحدى الحفلات ... إذن يقيمون حفلة .. ورأيت الأقنعة تقهقه ، تصرخ ، تشرب الويسكي ، تثرثر ، تتغامز ، تنفث دخان السجائر في وجهي من حروف البطاقة ، ثم تتهامس وتلتصق وتلتصق حتى تصبح قناعاً واحداً كبيراً لا يعرف الحنان . ولم أذهب إلى الحفل ، لكنني ذهبت إلى واجهة مخزن الأقنعة ، في الأضواء الشاحبة ، كانت تبدو رصينة وصامتة ، وخلف عيونها المفقوءة تلتمع أحداق فيها ما يشبه الحنان .

* * *

ربما لأنني لما أرعدَتْ ، أدركت كم أنا وحيدة .. تحولت إلى يدٍ صغيرةٍ باردة على منضدة في مقهى مقفر ، والكرسي الثاني فيها مقفر .. ولما انزلقت قدمي في المطر لم أمدّ يدي لأستند إلى جدار أحد الأبنية ، فقد لاحظت أن الأبنية كلها رسوم زيتية على ستارة قماش ، (يكشفها) اهتزازها في الريح ووهج البرق . والشوارع ظلال في برك الوحل ، ممزقة ومبتلة ، وغير حقيقية ..

ربما لأنها كانت ما تزال تمطر .

تمطر في عظامي ، تمطر بين جلدي ولحمي ، تمطر في حلقي وأنا أقرأ هذه الكلمات لشكسبير : « الآلهة تقتلنا بينما هي تمارس رياضتها » .. وتتوتر عشرات حكايا الاغتيال ،

تنقر كالمثقب ، أتحسس نبضي . تنقر كالمثقب .. وأشمّ رائحة العفونة تفوح من أوراقي ، وأخشى أن أنظر في المرآة كي لا أرى الدود الذي بدأ يأكلني ..

فأنا ميتة ما دمت وحيدة وهي ترعد ..

* * *

ربمـــا ...

ربما لهذا كله ، أجدني أنسلّ هاربة من صفحتي المعتادة ، لأركض في شوارع المجلة بحثاً عن سفارتها الحرّة* ، لأحتلّها ، لأرمي بمصنفاتي من (سطوحها) إلى الأرض ، ولأكسر هدوء القضاة في كلماتي ، وأرفع صرة (ربما زوادة سفر) على مظلة ممزقة راية لأرضي ، ثم أغلق النوافذ ، ثم أرسم على أحد الجدران نافذة ، أقف أمامها وأغلق فمي ، وأصرخ .. وأصرخ .. أو أقهقه .. أو أئن .. أو ألصق وجهي بالجدار ولا أقول .. ثم أفرّغ الحبر من قلمي تماماً ، وأنظف ريشته تماماً ، ثم أبحث عن ورق ، لا فرق ان كان قد كُتِبَ عليه من قبل أم لا ، وبالقلم الفارغ من أيّ حبر أكتب وأكتب ، وأبحث عن أسطوانة أضع الإبرة على الخط الأخير فيها . فلا أسمع سوى (تكة) النهاية ، وأتركها هناك ، رتيبة مستمرة تشبه صوت إبرة وحشية تثقب رأساً ما .. فالباخرة الآن بين الصخور تغرق في الظلام ، وصاريها ما زال مرفوعاً .. جاءت إلى بيروت وكانت ما تزال قادرة على أن تحلم ، طويلاً حلمت بالمدن العجيبة المدفونة منذ عصور في الأعماق ، بالميناء حيث تشفّ المياه كزجاج مصهور . ويصبح الرحيل نفوذاً مستمراً إلى داخل الأشياء وصلبها .

* * *

ثلاثة أسابيع ، لا عمل لأهل بيروت إلا الوقوف على شاطىء البحر ، ومراقبة السفينة المحطمة بين الصخور ، تغرق وتغرق ، دون أن يملك لها أحد شيئاً ..

ثلاثة أسابيع ، واحتضار الباخرة تسليتهم المفضلة ، يرقبونها بلذة أهل روما القدماء أمام مشهد التهام الوحوش لأبرياء رموا بهم إليها ..

---

* « السفارة الحرة » صفحة بالمجلة التي كنت أعمل فيها يومئذ وتتضمن « الخواطر الحرة » للمحررين .

الليلة ، ربما تموت الليلة بعيداً عن الأعين ، ربما هي الآن تنزف ومياه البحر حولها حمراء دامية .. وبعد أن تغرق ، ربما سيظل جزء ولو صغير جداً من صاريها فوق الماء ، وغير منكس .

• • •

إذن فهي تمطر ..

لكن حقل الزيتون الذي جف قد جف ..

لم يبق إلا جذوع عارية كأصابع كف محروقة تشير إلى أصقاع مجهولة ..

إذن فهي تمطر ! .. أية سخرية ما دام الحقل قد انتهى ! .

ماذا لو أمطرت حناناً أو دفئاً أو صقيعاً أو سجيلاً ما دام الزيتون قد احترق وفات الأوان ..

لا أدري ماذا أقول .. ربما لأن الليلة مطر .. تمطر في عظامي ، تمطر بين جلدي ولحمي ، تمطر في حلقي .. ربما لأن الباخرة تغرق ... ربما لأن حقل الزيتون قد احترق ..

• • •

لندن ١٩٦٦/٦/٦

في الزحام .. لا أحد

أنا الليلة لا أملك « كلمة بيضاء »* واحدة ...
في حلقي ملايين الصرخات الرمادية .
على لساني حقل أشواك رمادية .
على صفحة عيني ، ينزلق شريط أحداث طويل غائم خلف أمطار رمادية ..

وحينما ينزلق ذلك الشريط ، يصبح الدم الذي يجري في عروقي رمادياً ، والهواء بعد أن أنفثه من رئتي دخان ثقيل ...

لذا فالحبر في محبرتي الليلة رمادي : بقايا نيران : كانت قبل أن تستحيل هشيماً ، أنشودة شرر وعنفوان التهاب .

« كلماتي البيضاء »* ككل شيء أبيض ، ليست مجرد لون واحد كالأخضر أو الأصفر أو الرمادي ، لأن الأبيض حصيلة انصهار الألوان كلها ... وكلماتي تلك ، حصيلة استجابتي وانفتاحي على كل ما حولي ومن حولي ...

أما الليلة ، فأنا وحيدة مع ذاتي ، وكلماتي ستكون رمادية ... لا أحد يعنيه أمرها إلا إذا كان طبيباً نفسياً ، أو مروّج شائعات أو دفتر مذكرات .. أو وحيداً مثلي ..

أنا في لحظة صدق ... فأنا أكره الأقنعة : أمزقها حتى ولو كنت لا أملك تحتها وجهـــاً ! ...

قلمي المشحون بحبره الرمادي ، سأسلمه لجرحي : ليهذي ، ويهذي ...

• • •

---

* كنت يومئذ أكتب في المجلة نفسها عموداً أسبوعياً بعنوان « كلمات بيضاء » .

الليلة ...
أنا وحيدة ، ولا أرى سواي .
وحينما لا أرى سواي ، أراك أنت ، وحدك ، وبوضوح .

* * *

خنجر مدفون في لحم ذكرياتي أنت .

* * *

لست آسفة ، لشبكة الدم المتجمد على جسد الحكاية الجريح ...
تباركت الريح التي عصفت بالحقل الكبير ...

* * *

كما علمتني ، أقول :
شيء واحد ،
شيء واحد يجعلني أظل أعدو بالمشعل ..
هو أن الأيدي التي ترميني بالحصى والشوك خلال عدوي ،
هي نفسها التي تصافحني مهنئة بعد كل جولة ، حينما أصل دون أن أسقط ! ..

* * *

كما علمتني أقول :
الإبداع جرح لم يسممه الحقد !

* * *

لما انتحبتُكَ في صدري ، لما امتصصتُكَ ظل وثن ، لما ارتحلتُ على أصداء كلماتك الأخيرة الحزينة ، لما تفصد الدم الرمادي من مسامي ، بدا القاع مغرياً ، ونداؤه وحده يحمل السكينة والانطواء ...

وبالحاسة التي تجعل الفيلة تدرك من تلقاء نفسها أنها ستموت قريباً ، فتتجه إلى مقبرة خاصة ، حيث كل يتولى دفن نفسه ، بالحاسة نفسها بدأت أحفر في الرمل بسرعة .. لكنني لما رأيت الأيدي (الصديقة) تتزاحم حولي بالرفوش ، لتمد إليّ يد المساعدة بإهالة التراب فوقي ، حملت الراية من جديد ...

كما علمتني قلت : كلما حفرتم لي قبراً اتخذته أساساً لبناء قلعة .

* * *

لأني منحتك كالأطفال : كل شيء ، فأنا ما زلت أملك الكثير ...

* * *

عدت إلى الزحام

« في الزحام لا أحد » ...

* * *

رمحك ساعة انغرس بكى . كان كعينك بريئاً ونبيلاً . لم يدر . لم يدر .

* * *

صفاء صخرة مبتلة مجرحة بعد عاصفة المطر والرعد والصواعق .

حزن صخرة أحبت ذلك الزلزال .

صفاء . حزن . الحبر في عروقي رمادي ، والدم في محبرتي رمادي ،

وعيناك ، أذكر أنني قلت لك مرة في لحظة مباركة : أحبهما هكذا ، رماديتين .

٦٥/٩/٢٠

ماذا أكتب !

ماذا أكتب ؟ [١] ..

أسبوع وأسبوع وأسبوع .. ستة أسابيع ، والسؤال خطى عساكر تراوح في مكانها فوق رأسي ..

ماذا أكتب ؟ ..

ماذا أقول للناس هذا الأسبوع ، حينما أفتح نافذتي في هذه الصفحة ، وأطل منها عليهـــم ؟ ..

لا أدري لماذا ، ربما للمرة الأولى ، عجزت عن تجاهل أمر طالما عرفته ولم أبال به . لأنني لم أشعر قبل الآن بأنه يعنيني سلباً أو إيجاباً ..

إنه ربط الناس ربطاً حرفياً سطحياً بين حياة الكاتب الشخصية ، وبين نتاجه ، وتركيزهم الشديد على هذه النقطة ، إذا تصادف أن كان الكاتب (كاتبة) ، بحيث يقرأون نتاجها وكأنهم يقرأون مذكراتها ، وخلسة !! ..

هذه الناحية ، لم أعرها قط أي اهتمام حينما كنت أفتح نافذتي لأقول . كنت دوماً أصرخ في الأظافر المشهرة في بؤبؤ عيني ، وبملء فمي ، وبصدق ، ودون أن أتساءل : ماذا سيقولون ؟ وكم عدد رسائل الشتائم التي قد تنهال ، وتعرض نماذج منها في (متحف) بريد القراء .. أو كم عدد الأكف التي قد تضيء أصابعها تصفيقاً ؟ ..

ولم يكن تجاهلي هذا استهتاراً ، وإنما رفضاً لأسلوب في التفكير أعتبره خاطئاً ، وأعتقد أن في مجرد مراعاتي له ، إقراراً به .

---

(١) كُتبت ، بعد إعلان خطبتي بشهر صمت خلاله عن الكتابة .

ولكنني هذه المرة ، فوجئت بنفسي أتساءل : « ماذا سيقولون » إلى جانب تساؤلي : ماذا سأكتب ! ..

لـــاذا ؟ ..

ربما هو احساس جديد بمسؤولية إضافية : بإنسان آخر هو معي — بطريقة غير مباشرة — ودوماً ، وحتى حينما أفتح النافذة لأقول ، ولأتلقى حصاد صدقي ..

أسبوع وأسبوع وأسبوع ..

ماذا أكتب للناس ؟ ..

لو نشرت قصة عاطفية ، أية قصة ، ولو من أرشيفي القديم ، لقالوا : إذن هذه هي قصة الخطبة ! .. ولتبدلت أسماء أبطالها في أذهانهم إلى اسمي واسم خطيبي .

ولو نشرت قصة ، واستغنيت فيها عن البطل ، قصة راهبة مثلاً ، أو امرأة وحيدة في جزيرة على طريقة (روبنسن كروزو) لقالوا : إذن ما زالت حزينة ووحيدة ، وبلا بطل ! . ها هي تخون خطيبها مع « الغربة » ! ..

إذن نتخلى عن فكرة أية قصة عاطفية ..

قصة بوليسية ؟ .. سيقولون : لقد دخلت منذ الآن في جو الزواج الارهابي ..

قصة فكاهية ؟ سيقولون : أما قلنا لكم إن (مشاكل الوجود) التي تطرحها الكاتبات ليست سوى تصوير مضخم لمشكلتهن في البحث عن زوج ؟ .. ها هي قد نسيت أحزان «بيروت التي لا بحر فيها» واستحالت الفجيعة الإنسانية في «ليل الغرباء» إلى مسرح تهريجي ضاحك ! .. يا للسطحية والزيف ..

فلأصرف النظر عن نشر قصة ..

ولكن ، سيقولون فقدت موهبتها إثر هذا الحادث المؤسف ! .. الخطبة ! ..

فلأكتب قصة على طريقة كليلة ودمنة ، وليكن أبطالها من الحيوانات . سيقولون : قصة رمزية ... شيفرة سرية .. لمن ؟ .. لماذا ؟ ..

فلتكن قصة للأطفال ..

سيقولون : الأنثى تنتصر ، وها هي منذ الآن تعد القصص لأطفالها ! .... فلأكتب

قصة وطنية !! .. سيقولون : هذا « الخافق المعذب » وبدأت مسرحية القضايا العامة ..

فلأكتب مقالة .. مقالة اجتماعية مثلاً . سيقولون : بدأت تمهد للانضمام إلى « الجمعيات الخيرية » والتجمعات النسائية لعرض الأزياء تحت اسم « اللجان التنظيمية » لجمعيات مثل « جراب الحاوي » تصلح لجميع المناسبات ما دامت تتيح عذراً اجتماعياً « فخرياً » للتملص من الزوج المسكين .

ماذا أنشر إذن ؟ مسرحية من اللامعقول « كالطوفان » ؟ .. سيقولون : لقد دخلت سريعاً في مرحلة الهذيان ، وداخت بين واجباتها في مختلف غرف البيت الذي لما تسكنه بعـــد ! .

ماذا أنشر اذن ؟ ..

وتذكرت حكاية قديمة ..

فلاح ركب حماره متجهاً إلى السوق ، بينما سار ابنه الصغير إلى جانبه .. مر به الناس فقالوا : « أية قسوة ! يترك ابنه المسكين يسير بينما يستأثر هو بالحمار » ؟ فنزل عن الحمار وأركب ابنه . مرت به مجموعة أخرى من الناس فسمع همساتهم : « ما هذا الابن العاق .. يترك أباه الشيخ يمشي ، ويسترخي هو على الحمار !! » .. فما كان من الفلاح إلا أن قفز هو أيضاً على ظهر الحمار الذي سار بهما بخطى بطيئة . قال الناس : « لقد فرغ القلب البشري من الرحمة بالحيوانات .. هذا الحمار المسكين سيموت اعياء لثقلهمـــا » ..

وهنا هبط الفلاح عن الحمار ، وأنزل ابنه وتعاونا على حمل الحمار ، إرضاء لجمعية الرفق بالحيوان . ومر بهما الناس فانفجروا ضاحكين هازئين : « انظروا إلى جارنا المسكين .. لقد أصيب بالجنون » .

فأنزل الحمار عن كتفه ، وسار ثلاثتهم جنباً إلى جنب . لم يبق أمامه إلا هذا الحل . ومع ذلك ، سمع الناس يقولون : لماذا اشترى الحمار إذا كان (سيماشيه) كأنه صديق قديم أو فرد من الأسرة ؟؟ ..

ماذا أكتب ؟ . .

سأكتفي بتجربة الفلاح ، ولن أستشير أحداً . ولن أخاف الأصوات الرافضة لي ، ولن أماشي الأكف المؤيدة التي تضيء أصابعها تصفيقاً . .

وسأكتب حقيقتي وصدقي كما فعلت دائماً ... وليكن ما يكون* !! ...

---

* كان أن فُسخت الخطبة !! ...

كتابات طفولية في زمن
ذاكرة الياسمين بدمشق...

أنظر ، كل الطرق التي كنت تسلكها انغلقت .
ما عدت تعطى حتى المهلة
لتمضي ولو تائهاً . الأرض التي تتوارى .
وقع خطواتك التي لا تتقدم
لماذا تركت العوسج يغطي
صمتاً عالياً جئت إليه ؟
النار تحمي صحراء في حديقة الذاكرة
وأنت ، يا ظلاً في العتمة ، أين أنت . من أنت ؟
أنت وحيد الآن رغم هذه النجوم .
المحور قريب منك وبعيد عنك .
مشبت ، يسعك أن تمشي ، ولن يتغير شيء
دائماً الليل نفسه ، الليل الذي لا ينتهي .
وانظر ، انفصلت عن ذاتك .
دائماً هذه الصرخة نفسها ، لكنك لا تسمعها
أأنت الذي يموت ، أنت يا من فقده القلق
أتراك ضعت ، أنت يا من لا يبحث ؟

— إيف بونفوا —

دمشق ١٩٦١/٩/٢٦

ستنشد المدينة من أجلي !

وجودي زيّفتُه حتى أضعته وما دريت .. غزلت ليالي طويلة من تبعية واستسلام ما أدركت ... حتى تفجرت النجمة بين أهدابي فانفلتُّ بين استنكار القطيع ودهشته ، أدوس اكليل الخوف ، وأبحث عن وجودي ، لأتحدى الوجود كله بوجودي .. لو وجدته !! .. أبحث عنه لأمجده بأن أعرّيه وأبارك صدقه .. من وجد نجمة ، لا يسجد لآلهة التمر .. يرفض بركة التبغ والكافيار ..

ويثور في أعماقي حزن ملتاع جاف .. أحس إحساساً مفجعاً بأنه كانت هناك أشياء لم أبك من أجلها بما يكفي .. أشياء ما زالت غارقة في أعماق أعماق رفضي وعنـادي ورواسبي .. وانها ستظل أبداً خفية دفينة .. يا رعب المقابر يوم تفغر أفواهها لتكشف عما بداخلها .. يا خوف نفسي مما بنفسي .. يا نجمة تضيء .. تتوكأ على قلم .. تهلّ في مهرجان السطور ..

لأن الخوف انحسر ، عدت أبحث عن وجودي من أجلك .. وأنا لم أعد أخشى شيئاً . وأنا كاهنة الحريف .. أطوي أحزاني وأبخل بصدقي .. وأنا متعبة ، كلما بحثت عن نفسي اصطدمت بشتاء الصمت .. ضاعت يداي في صقيع الصمت .. لم يعد للشفاه همس .. لم يعد لصخب المدينة صوت .. لا أسمع حفيف أنفاس أي انسان .. الطيور والكنائس وشفاه الأطفال خرس جامدة .. الصمت احتل المدينة .. انسكب مـن مداخنها وشرفاتها .. الصمت .. وحسرات بحر خرست أمواجه .... الصمت .. لم تعد زرقة السماء تزغرد ..

وأهرب ...

بين أكداس من الأسطوانات أدفن وحشتي وقلقي ..إلى عالم الموسيقى أهرب من حسراتي ونزقي ولهفتي .. أستسلم لزبد اللحن يغمر وجهي في ثرائه .. أستسلم لمويجاته

تبعثني موجة فضية في الشاطىء الأسود .. أستسلم لدواماته تحتويني .. تُفجرني في أغوارها اللهابة ، غجرية مجنونة الرقص وحشية الانفلات .. تلصقني لؤلؤة وادعة بخد صدفة عذراء .. أستسلم للحن يغسلني .. يحررني .. يشحنني بالثورة ، بالحنين ، بالإصرار بعناد العناد .. المدينة ما زالت خرساء لكن مدينة جديدة تولد في دوامة اللحن .. المدينة التي أحب وأريد .. عدت أهرب من جديد إلى نشوة الحلم وخيبة الحلم .. يا مدينتي الخرساء ، سيول الأحزان تتجمع .. تسيل من عيني دمعة .. دمعة واحدة من عين واحدة . عيني الأخرى جافة . حادث كبير في حياة امرأة لا تبكي أن تسقط من عينها دمعـــة ..

ويصمت اللحن .. وترقد النجمة بين أهدابي وادعة .. نجمتي التي تستند إلى قلم ، وتشرد في مهرجان السطور ..

وأهدأ .. وجدت دربي الجديد ونفضت اكليل الخوف .. الصمت ؟ من يبالي ..

يوم أجد نفسي وانتمائي الحقيقي وحلفائي ورفاقي أكون قد وصلت .. وستنشد المدينة من أجلي .

دمشق ١٩٦١/٥/٢٣

أنا دمية الساحرة الشريرة

الدمية السوداء معلقة في المذبح .. انها تمثال الساحرة الشريرة ، التي يكرهون جميعاً شرورها .. خيط رفيع يشدّها إلى السقف .. تتأرجح في سحابة من بخور وتهاويل .. تنوس كلما غرس فيها رجل دبوساً أحضره خصيصاً لذلك ، وهو يهتف بحماسة جوفاء : مت أيها الحقد .. رجل آخر يسدد دبوسه إلى عين الساحرة ويصرخ : مُتْ أيها الحسد ، مُتْ أيها الكذب ، مُتْ أيها الرياء .

عشرات الدبابيس تنغرس ... عشرات الشتائم تنهمر .. موتي أيتها الانتهازية . أيتها الدبلوماسية الصفراء ..

دمية الساحرة السوداء لا تشكو .. يغيظهم ألا تعول وتنتحب .:. تهوي إلى الأرض .. تتناثر .. البدائيون يرقصون فوق الحطام .. يدورون وفي أعينهم فرحة مزيفة بلهاء .. يحتفلون في لهاثهم المحموم بموت آثام الوجود .. وفي أفق ما .. يقهقه شيطان بسخرية وفخـــر ..

* * *

شمس اليوم التالي تتسلل بفضول إلى القرية ، وفي أهدابها الشقر حلم بيوم طيب ، بعد أن خبرها الليل بأن البدائيين قد قتلوا الشر ... ولكنها في المساء تلملم أهدابها بانكسار ، زاحفة إلى مغاورها الرمادية .. فقد رأت أن الرجال ما زالوا يُقتلون من أجل اللاشيء .. ورأت أن العاشق الطيب يشتم امرأة لأنها لم تبادله الحب .. ورأت صديقاً يتخلى عن صديقه ، لأنه ظنه بحاجة إليه .. ورأت أن حفار القبور ، قد اتفق مع الطبيب على التآزر والاتحاد ... ورأت أن زوجة الحارس الذي سرق من أجلها في الفجر ، قد هجرته إلى عشيقها في المساء .. ورأت الأطفال يحصبون فتاة تحترم عدوها ، لأنه لم يحاربها من وراء قناع ..

الشمس دهشت .. دمية الساحرة الشريرة حطموها .. من أين أتى الشر ؟ وفي أفق ما كان شيطان يقهقه بسخرية وفخر ..

* * *

وفي المساء عادوا إلى حلقتهم من جديد في (يوتوبيا) زجاجية الجدران يسمونها « المقهى » .. تمثال الساحرة الشريرة ينوس في الوسط .. يأكلون بعضاً من لحم نيء ، ثم ينهضون والدم يسيح من أفواههم ليرقصوا ويعربدوا حول تمثال الساحرة الشريرة .. ليتجمع الناس .. إنهم يقتلون الشر .... لينفخ في الأبواق .. إنهم يقتلون الشر .. تمثال الساحرة تهاوى .. مات الشر ..

وفي أفق ما كان شيطان يقهقه بسخرية وفخر .

* * *

ملايين الدمى ظلت تهوي منذ عصور وعصور .. بدأوا بالساحرة في ثيابها السود ومكنستها الأسطورية .. أحرقوا جان دارك .. مزقوا ليلى الأخيلية . سحلوا في القرية ألف امرأة قالت : لا .. وألف امرأة قالت : نعم .. وألف امرأة لم تقل شيئاً ..

وفي عصر الصاروخ والتطور ، حافظوا على التقليد البدائي نفسه .. لم يقدموا للإنسانية أسلوباً جديداً لقتل الشر تغتني به ..

* * *

دمية الساحرة الشريرة كئيبة وهادئة .. تموت وتحيا بصمت ... تشفق أحياناً عليهم لأنها تعرف أنهم يخدعون أنفسهم .. مرة التقت نظراتها الحزينة بنظرات إنسان طيب أزرق العينين مد دبوسه الكبير ليغرسه في صدرها ويهتف : لتمت أكاذيب الأصدقاء .. وكان في عينيها حنان لا حقد .. وكان في عينيها تجلد إنساني ممزق ..

توهجت لحظة صدق وصفاء أمامه .. نار المعرفة والفهم اشتعلت بين يديه .. انطلق هارباً وهو ينتحب ويقول : مسكين (بروميثيوس) ... كم تعذب ! ! ..

وقالوا في (اليوتوبيا) زجاجية الجدران انه جن ! .. احتجب أياماً عن البدائيين .. رأوه يسير مع الساحرة الشريرة .. صلوا من أجله كي يشفى .. رفعوا القرابين لإله الكذب والدس كي يشفى .. واحتفلوا يوم عاد اليهم فنفخوا في الأبواق وابتاعوا دبابيس

جديدة .. دمية الساحرة ظلت هادئة وصامتة وكئيبة .. وفي أفق ما كان شيطان يقهقه بسخرية وفخر . !

* * *

لماذا لا نهدأ قليلاً .. ونقولها كلمة صريحة.. منذ عرفنا الشر ونحن نمزق دمية الساحرة، فهل مات الحقد،والغدر بالذين وهبناهم الكثير من نفوسنا .. أو القليل الصادق ؟ ..

لماذا لا نهدأ قليلاً ونقول اننا بلا ريب قد أخطأنا الساحرة ؟ .. واننا ما زلنا بدائيين .. واننا ننسب للآخرين صفاتنا التي نكرهها في أنفسنا .. وأن دمية الساحرة ليست إلا الظلال التي ترميها أعماقنا على الأشياء .

لماذا لا نلتفت إلى أنفسنا ؟ ..

قليلاً من الصدق .. قليلاً من التواضع .. ثم يغرس كل منا دبوسه في أعماقه .. في أعماقه ..

دمشق ١٩٦١/٩/١٢

لا شيء سوى قطع فسيفساء !

حياتنا مجموعة أشياء صغيرة وصغيرة جداً .. قطع من الحصى يرصفها القدر الذي نصنعه ، والذي لا نصنعه ، فاذا وجودنا لوحة من الفسيفساء في ركن معبد مهجور ، يلعقها الليل ويغزوها الغبار .. لوحة من الفسيفساء في تقطع حصاها وحدة ، وفي تباينها انسجام .. تذهلنا هذه الحقيقة يوم نكتشفها ، لأنها لا تتفق وأحلامنا المثالية ، التي كنا قد حملناها قبل أن نمارس الحياة العملية ..

منذ أعوام كنا ندب في درب الطفولة ، وننتقل من مرحلة دراسية إلى مرحلة ، ونحلم باليوم الذي ندخل الحياة العملية فيه ، فنصل إلى المعبد لنرسم على الجدار الذي ينتظرنا لوحة وجودنا .. وكنا لا نعرف إلا أننا وجدنا أنفسنا في أول الدرب ، وأن علينا أن نسير ونسير إلى حيث يوجد المعبد .. وأن علينا أن نتزود من هذه المرحلة (بشهادة دراسية) وحلم وأغنية ، تساعدنا على انتقاء ألوان لوحة وجودنا .. وكنا نتجاهل مئات الأسئلة التي تفرض نفسها علينا : « من أين جئت » ؟ ... « إلى أين أمضي » ؟ .... « لماذا أرسم اللوحة » ؟ .... وكنا نهرب من رعب السؤال إلى رعب الصمت ، ومن رعب الصمت إلى عالم الحلم .. فنحلم .. نحلم بريشة الرسم الفاخرة والدهانات الثمينة بألوانها المبهجة العربيدة ، ونحلم بصخور شفافة تنحت منها إطاراً للوحة ، ونحلم بأننا سنصطاد شمساً ندقها في إحدى زواياها .. ونحلم .. ونحلم ...

* * *

ويوم دخلنا الحياة العملية ساعة وصلنا إلى المعبد ، اكتشفنا أنه غول رمادي الهرم .. وأن إطار اللوحة الموعودة حشائش بحرية لزجة .. وتصعّقنا الخيبة اذ لا شمس في المعبد .. لا ريشة .. لا صخرة زجاج .. وندرك فجأة أن كل ما كنا قد حلمنا به ، كان أبخرة وهم عقيمة لا تمطر .. من منا ينسى خيبته يوم استلم عمله الأول ، واكتشف أن له

منضدة حديدية باردة وخزانة حبلى (بالمصنفات) ومحبرة كأي (مقموع) ؟ .. وهو الذي لم تقنع أحلامه خزائن بابل وعروش فارس !! ...

ونجمد . تذبل أهدابنا . الخيبة قاسية ، ونحن أمام منظر لم نكن نتوقعه .. فننكب على دروسنا وكتبنا وتقاليدنا .. ننبش الحروف بحثاً عن إيضاح .. نعصرها .. نسحقها بحثاً عن كلمة عذراء لم تلثمها شفة قلم .. لا شيء سوى رعب الصمت .. لا شيء سوى قطع فسيفساء تغرسها العاصفة في اللوحة .. ونضيع في الإعصار .. الأسئلة التي كنا نغطيها بزبد أحلامنا ، تنتصب من جديد عارية القسوة وخازة .. رعب الرعب في صحارى اللاجدوى هو الجواب .. وندرك أنه ذات ليلة ستنقض من كوة المعبد عاصفة بنفسجية تصلبنا فوق اللوحة بمسامير من شوك ، وحينئذ فقط تكتمل لوحة وجودنا ..

* * *

ونروح نهمل أشياءنا الصغيرة ، وتغمرنا الآلام والمتاعب ، ولا ندري لماذا .. فنحن في غمرة قلقنا وخوفنا ، ونحيينا على حلم شبابنا الممزق ، نتجاوز أشياء كثيرة صغيرة هي في الواقع وجودنا الذي نملك .. بسمة صديق .. كلمة طيبة .. ثانية تفاهم ووفاء تتجاوز الأبعاد الزمنية وتخلق في ثانية دهوراً من سعادة واطمئنان .. ولو دققنا النظر في حياتنا لدهشنا .. لو حاولنا أن نكشف عن العلة التي تقف وراء أهم أحداثها وتقلباتها لوجدنا أنها أشياء صغيرة ... فسيفساء ..

أنت ، وأنت تسير ، قد تلتقي بعينين تشدانك وراءهما العمر بأكمله .. وأنت تتبعهما مستسلماً ، كأنك لم تمض عشرات الأعوام تقرر كيف يجب أن تكون شريكة حياتك ، وترسم لها وتخطط ... ذبابة واحدة تقف على أنف شرطي السير وتضطره إلى رفع يده وطردها قد تسبب صداماً مريعاً ، وتسبب وقوف سيل من السيارات وربما موت مريض ما ينزف في إحدى السيارات ... مجرد حركة يد .. فسيفساء ..

* * *

أنا كدت أقتل اثنين من أطيب وأعز الناس بحركة يد خاطئة .. كان هنالك مصعد أسرعت إليه .. أهملت النظر إلى شارته الضوئية قبل أن أفتح بابه لأتحقق مما إذا كان قد بدأ هبوطه أم لا .. والذي حدث أن المصعد كان قد بدأ هبوطه ، وأنه توقف في نصف الطريق إلى الطابق الذي يليه ساعة فتحت الباب ! .. وهذه حالة نادرة ، ولكنها تقع ! .. وأطللت من الباب المفتوح على خوف إنسانين سجينين في قعر البئر . لم يحتجا بكلمة .

وابتسمت ببلاهة .. واعتذرت وأنا أشعر بالكلمات مضحكة بليدة وبالاعتذار أسخف اختراعات المجتمع .. فقد كنت بحاجة إلى أن أبكي .. يد أحدهما كانت مدفونة بين أربطة بيض بسبب جرح سابق أسفت فعلاً يوم أصيب به .. ومع ذلك كدت أقتلهما أنا التي أحتاج إلى دهور من حقد قبل أن يخطر لي شتم انسان .. وأنا التي حلمت بريشة البراءة ترسم الشق الأكبر من لوحة وجودي .. لا شيء في اللوحة سوى فسيفساء .. بطرف أصبعي كدت أهيل عليهما كتلاً من الأربطة البيض فتغمر الملامح الهادئة والوجه الطيب ... وأظل أدور في المعبد هلعاً من أن تهوي صخرة تسحق قدماي فأنسى الحصى الذي يدميهما والذي يمزقها كما لم تفعل صخرة .

لماذا لا نقتنع ونقنع بأن قدرنا فسيفساء ؟ قد لا تكون قطعه مصقولة ولا منتظمة الحوافي .. حسبنا أنها حقيقية ! ..

لماذا لا نبدأ من جديد ، نتوقف عن رفض الأشياء التي كنا نظنها تافهة ، ونحاول أن نصنع منها شيئاً ثميناً ولو كان صغيراً ، عميقاً ولو كان محدود الاتساع ؟ ...

لماذا لا نبدأ منذ الآن .. فيستحيل فسيسفساء لوحة وجودنا شيئاً مدهش الأبعاد .. وإذا بكل فيروزة فيه بحر عميق .. وكل زبرجدة ربيع .. وكل عقيقة خمرة أصيل .. وكل رعشة سنوات انفعال ..

لماذا لا نحاول ؟ ..

دمشق ٦١/٨/٢٩

توهمتْ أني طفلة

هل تؤمن بالنصيب ؟ ... وهل تعتقد أن هذه الكلمة تكفي لتبرير حادثة (مريعة) كحادثة زواج ؟ وإذا كنت تؤمن بالنصيب ، فهل تعني به شيئاً تختاره أنت ، أم شيئاً مفروضاً عليك ؟ .

ألا تشعر أحياناً بأنك كتلة من أعصاب ثائرة مبدعة ، وانك تستطيع أن تعيد تصفيف نجوم السماء المبعثرة ، وان النصيب هو ما ترسمه أنت ، وأنت وحدك ؟ .. ألا تشعر في فترات أخرى ، ان خيوطاً عنكبوتية خفية لا دخل لك فيها ، تشيد ملامحك وتصرفاتك وعواطفك ؟ ... وأنك تبتسم وتتحرك وأنت شبه منوم ، كأن شعاعاً مبهماً ينهب أعماقك ، ويسلبك ارادتك ؟ انك تبحث عن تبرير لأعمالك بعد أن تقوم بها ، تحاول أن توجد لنفسك سلسلة منطقية تشد تصرفاتك كلها بشكل (معقول) .. فتصدق نفسك، وتكاد تؤمن بتبريراتك ، وتضيع في بحران من الحيرة ، لأنك تؤمن داخلياً بأنك لم تكن (أنت) الذي تصرفت ، ومع ذلك فإن مسؤولية هذه التصرفات تقع (اجتماعيا) عليك ... وفي لحظة ما ، تسأم من حاجتك إلى تبرير نفسك للناس ، فتصرخ فيهم : انه القدر .. « نصيب » ... وفي لحظات أخرى تشعر بأنك لست مديناً لأي إنسان بأي تبرير ، فتكتفي بالصمت ، وبالتساؤل المتعب : لماذا فعلتُ هذا ؟؟ ...

* * *

أثارت في نفسي هذه الخواطر صديقة رأيتها بعد فراق طويل ، وكان في اصبعها خاتم ذهبي التمع بشدة حين قالت : نصيب ! ...

ولم أستطع أن أفهم إن كانت تعني ، النصيب الذي اختارته هي ، وهي بكامل قدرتها على الاختيار ، أم « النصيب » الذي ظنت أنها اختارته بينما كانت خيوط القدر هي التي حركتها ، وهي التي (اختارت) لها أن تختار !! ...

عرفتها منذ ست سنوات ... طالبة جامعية حسناء لم تبلغ العشرين .. وكنت يومئذ تلميذة في الصفوف المتوسطة ، أقرض الشعر سراً ، وأكتب القصة ، وأبكي مصير ماجدولين وسيرانو دي برجراك دون أن يشعر بي أي إنسان ... وجاءت هي مع أهلها تزورنا في المزرعة المنعزلة التي نقضي الصيف فيها .. وهناك ، بين أحضان أجمة منطرحة عند أقدام بردى جلسنا نتحدث ... كنت بحاجة إلى البقاء وحدي وإلى الكتابة ، وكانت على ما يبدو بحاجة إلى الكلام .. إلى أن تحدث إنساناً لا يعرفها ، ولا يستطيع أن يؤذيها ... وكان في وجهها كآبة حقيقية وبؤس ملتاع .. ولعلها أنست بي ، وخيل اليها أنني طفلة لا يمكن أن تفهم في الحب شيئا ، وانها تستطيع أن تريح نفسها بالحديث دون أي خطر .. فأخرجت دفترا أصفر من حقيبتها وبدأت تقرأ :

من رآها ، خطوها حلم بأجفان الورود
وحنين ظامىء للافق ، للافق البعيد
وشعاع تاه في الخضرة ، كاللحن الشرود
كضياع اللون في اللون .. كأنفاس الوليد

واستمعت إلى القصيدة بأكملها بنشوة ملأتها سعادة ... هل كانت الابيات ؟ أم المكان ؟ .. أم أسلوبها الخاشع في تلاوتها ...

وسألتها : من كتب هذا ؟ .. قالت : صديق صديقتي ... ولم أصدقها . بينما عادت تتغذى بالتلاوة :

واذكري الشاعر دوما للربى	لقطيع الماعز المسترسل
لحداء يبسم الراعي لها	وعلى الاعناق همس الجلجل
لوريقات على النبع ارتمت	لارتعاشات بصدر الجدول

وعدت أسألها : من كتب هذا ؟ .. قالت : صديقي ... وانفجرت باكية .. وهوت الأوراق بين يدي .. وأقبلت عليها وأنا المغرمة بالكلمة الحلوة .. ورجوتها أن تترك الديوان لدي ، فقبلت بعد لأي .. ولما أعدته اليها بعد أيام ، لاحظت أنها كانت قد نسيته ، واضطرني برودها إلى أن أخفي اعجابي بالأبيات الحارة الصادقة .

وتهاوت الأعوام .. وسمعت أنها أنهت دراستها الجامعية بنجاح .. وكنت أراها في فترات متباعدة ، نضرة رائعة ، واذكر الشاعر المجهول الذي رفضت أن تبوح لي باسمه ، وأذكر وجهه الشاحب الغامض الذي كان يتراءى لي من خلال سطوره الغسقية .

.. وأخيرا رأيتها منذ أيام ، وخاتم الزواج الذهبي يلتمع في اصبعها ..

وتذكرت ما قاله الشاعر :

ترى هل نعود
نلم الحنين
وتقطف يا زارع الزيزفون
ثمار الخريف .. مع الهاجرة ..

وتساءلت طويلا : ترى هل عادت ؟ هل أزهر الزيزفون في حديقة الشاعر الطيب من جديد ؟ .. هل تزوجته ؟ .. قلبي قلق عليه ! ..

وودت أن أسألها عنه . لكنني خشيت من أن تسخر مني وتكون قد نسيت كل شيء ... وظل الشاعر سراً ... سراً مغلقاً كابتسامتها وهي تقول لي : نصيب !! ... تراها كانت تعني بهذه الكلمة رجلاً اشتراها،وتريد أن تتنصل من مسؤولية ذلك ؟ .. كلمة نصيب لا نصيب لها من احترامي !! ... غالباً على الأقل ! ..

دمشق ٦١/٨/٢٢

الحقيقة رائعة .. مهما تكن ممزقة ودامية

من قال إن أراني البيض ماتت ؟ من قال اني لم أعد أبالي بأي شيء يحدث في الوجود ، بعد أن لقيت أقسى ما فيه ؟ من قال اني سأظل أطل على الأشياء بعينين زجاجيتين فارغتين كنافذة بلهاء ، لا أبالي إن جرح خد القمر أو انتزعت الشمس قيودها الذهبية الأسلاك من الصحاري وانفلتت هاربة إلى كون آخر مهجور ؟ أنا هي التي قالت ذلك ذات مرة ؟ .. وهل صدقتها ؟ ..

ربما كنت أخدع نفسي حينما قلت ذلك .. ربما كنت أعيش حكاية الثعلب – والحصرم – المشهورة ... هل تعرفها ؟ قصة الثعلب الذي رأى كرمة مرتفعة جداً . تتدلى منها عناقيد شهية ناضجة ، سكبت فيها الكروم خمرة شمس وعنبر ، فاشتهاها كما لم يشته شيئاً من قبل .. وحاول أن يقطف عنقودا ففشل .. كانت العناقيد كلها مرتفعة جداً .. أعلى من أن تنالها قفزاته وحيله وأساليبه .. وبعد طول فشل ، أقعى على الأرض تحتها وقد أخذ التعب منه كل مأخذ .. ورماها بنظرة اشمئزاز وهو يقول بتعال واحتقار : انها لما تنضج .. ما زالت حصرماً .. لا أريد أن آكل منها.. لا أريد!!..

* * *

هذا الأسلوب في خداع النفس نمارسه جميعا .. يمارسه عاشق فشل في التسلق إلى شرفة الحبيبة ، وأعيته نوافذها الموصدة ، فمضى بعد طول توسل يشتم الشرفة التي كانت منارة ، ويتهم النوافذ بالقذارة ...

ومارسته أنا يوم قلت ان أراني البيض ماتت ، وانني لم أعد أبالي بشيء ... فقد عدوت طويلا وراء عناقيد الطمأنينة والثقة ، وفشلت مراراً ... ونفقت أراني البيض ، وغمرني هوان الفشل وكبرياء الفشل فقلت إنها اللامبالاة والسأم ! .. من يعترف ؟ .. أنا أعترف اليوم .. أريد أن أعري واقعي ، فعري الحقيقة لا يعرف

الفجور ، لأن الحقيقة رائعة مهما كانت ممزقة ودامية لمجرد أنها حقيقة .. ولأنه ليس خطأ أن تكتشف انك كنت على خطأ ، وانك كنت تجامل نفسك وتخادعها . ولكن الخطأ في أن تستمر مكابراً حتى بعد أن تكتشف الحقيقة ... الخطأ في أن تظل تغلق النوافذ وترخي الستائر ، ثم تصر على أن الشمس لما تطلع ، وأن الليل ما زال يغزو المدينة .. إن الشاعر الأميركي الكبير — والت ويتمان — كان يفخر بأنه يقول الصدق في كل لحظة ، الصدق الذي يعيشه والحقائق الجديدة التي يكتشفها ولا يهمه إن ناقض نفسه أو كذّب ما سبق أن أكّده . .

* * *

أنا قد فشلت مرة ، ومن لا يفشل ؟ .. لكنني أكتشف اليوم انني كنت قد خسرت جولة واحدة لا معركة .. وأنا قد خدعت مرات ، ومن لا يُخدع ؟ .. وأنا قد تلقيت الطعنات في ظهري ، لكن هذه الطعنات بالذات كانت تؤكد لي انني أسير في المقدمة .. وأنا قد تألمت فعلاً .. ماتت أرانبي البيض جيلاً بعد آخر .. لكن كبرياء الألم ، هي التي كانت تزيف الأشياء يوم قلت : — إن أرانبي البيض انقرضت ، لم أعد أبالي بأي شيء ! — كبرياء الطفل الذي يأبى الاعتراف بأن أمه ضربته ، لأنه ما زال يحبها ! .. فيتظاهر باللامبالاة والترفع وهو يعرف أنه يحب أمه القاسية هذه .. أجل .. أحبها ! .. أمي : الحياة ، أحبها .. بكل ما فيها من بربرية ومدنية أحبها .. وأحب زئير أسدها وحفيف أجنحة طيورها .. أحب برقها الذي ينشق على سعادتي تارة ، والذي يحرق أهدابي تارة أخرى ويخلفها كهشيم يبدد .. من لا يحب الحياة رغم كل ما فيها من قسوة وجحود ؟ .. من لم يعش هذه المأساة ؟ .. إن حبنا إياها نفسها ، وتمسكنا المجنون بها رغم ما فيهـــا من لامبالاة بانسانيتنا هو الذي يثير كبرياء ألمـــنا .. كبرياؤنا ترفض هذا الواقع الذي لا مفر منه .. تريد أن تعاقب الوجود الذي أهملها باهمالها اياه ، وأنا حاولت أن أعاقب الوجود يوم صرخت : — أرانبي البيض ماتت.. الخدر يزحف نحو دفء الشفاه .. نحو بريق العينين الفضولي .. نحو حماسي ولهيبي — ... كاذبة كنت ! .. من قال ان النار تعرف الخدر ؟ .. من قال ان النار لا تحرق نفسها بينما هي تحرق الأشياء ؟ .. من قال ان الانسان قادر على أن يفقد وعيه ؟ .. من قال اني سأرفض الوجود بعد اليوم وأتظاهر باللامبالاة ؟ ...

* * *

لماذا لا أعترف ؟ ..

أرانب صغيرة حلوة تعربد في أعماقي من جديد .. تحمل إلى سأم مغاوري وعداً بصخرة تنشق ويتفجر الماء منها .. بوهدة تفور فجأة بحمائم من ثلج دافىء .. بغيمة لن تمطر إلا في شرفتي .. بصدفة لن تسكب لؤلؤها إلا في مفرق شعري .. بغدير لن تتفتح أعين اللوتس فيه إلا لأغنية جديدة فرحة أنشدها بخشوع أمام تلال المجهول .. فالحياة جميلة ، وأجمل ما فيها اننا لا نموت إلا لنحيا من جديد ، لا نترنح إلا لنركض من جديد ، لا ينفق جيل من أرانبنا البيض إلا ويؤنس وحشة أعماقنا جيل جديد ..

ما زال في الكأس بقية ..

دمشق ٦١/٨/٨

صديقي الذي كان يغني لي .. طوال الليل !

علمونا في المدرسة أن العين آلة تصوير دقيقة تلتقط صور المرئيات ، وان عيون الناس جميعا متماثلة ، لها شبكية وقزحية وقرنية ... وصدقنا هذا كله يومئذ إلى أن بدأنا نكتشف أشياء ليست جديدة ، لأننا كنا نعيشها دائماً ...

ان أي كاميرا من كاميرات العالم تلتقط أي مشهد بشكل واحد في لحظة واحدة .. ولكن عين كل إنسان تراه بصورة تغاير الصورة التي تراه بها عين الاخر ، لأننا نرى الأشياء من خلال أنفسنا بكل ما تحمله النفس من نزوات وأمان وطين وطيب ... بل اننا نرى الشيء ذاته في لحظات نفسية متباينة بصور متعددة ...

قمرك المحبوب مثلاً الذي طالما طفت في سهوله رحالة ما عرف الوجود أسعد منه ، هذا القمر نفسه ، يستحيل حينما تكون حزيناً إلى حطام مرآة عجوز ، طالما عكست ضحكات سعادتك ، أو وجه جرذ أبيض مذعور ، فغرت قطط الظلام في السماء فاها لتبتلعه ، ولتهرب به ساعة تطل عمامة الفجر ...

فالكون ليس كوناً واحداً .. إن ملايين العوالم تتناسل ، وفي كل ثانية يولد عالم ويموت عالم في عيني انسان .. والوادي الذي يطل عليه مئة إنسان ، هو مئة واد جديد في كل ثانية جديدة .

* * *

... هذا ما كنت أفكر به وأنا مكومة في ركن شرفتي التي تطل على حديقة الجيران ، والقمر الذي طالما طفت في سهوله ، رحالة ما عرف الوجود أسعد منها ، هذا القمر نفسه استحال ليلتئذ إلى وجه جرذ أبيض مذعور ، فغرت قطط الظلام في السماء فاها لتبتلعه ، ولتهرب به ساعة تطل عمامة الفجر .. حتى الشجرة التي انتصبت في الحديقة لتضم شرفتي بحنان ، انقلبت تلك الليلة إلى مارد مخيف تنبعث من هيكله الضخم شحنات

سوداوية رعناء الحزن . وضحكات الجيران الساهرين المتحلقين حول الأشجار في حديقتهم تغيظني ، وابنتهم السمجة تنشد لخطيبها بين لحظة وأخرى أغنية تتميز بخلاعة بلهاء .

لم أكن أعرف كم من الوقت انقضى وأنا في جلستي هذه ، كئيبة كمأتم ، خرساء كموجة أعماق ... لكنني فوجئت بأبي يتأملني بهدوئه المعتاد ثم يسألني ببساطة : « ما هي مشكلتك الليلة ؟ » .

وأبي اعتاد أن يراني هكذا ، كئيبة كمأتم تارة ، وسعيدة ضاجة كطبل تارة أخرى ... واعتاد أن يسأل دون أن ينتظر مني جوابا ... لكنني أجبته بعد أن كرر سؤاله : لقد ذهب ... اختفى ...

— من هو ؟ ..

— صديقي الذي كان يغني لي طوال الليل .. صديقي الذي يذكرني بصفاء غابات شاسعة وبأمسيات صيف دافئة في حقول نائية ..

— من تعنين ؟ ..

— أعني صديقي ... الجندب ! ! .

لم يدهش أبي فقد ألف مثل هذه المواقف مني ، وعاد يسأل ببساطة : —

هل هو جندب (انطوائي) خاص اعتنيت بتربيته في خزانة ثيابك كما فعلت بفئرانك البيض ؟ ..

— لا .. على أية حال ، في مدينة كهذه ، يحب الإنسان كائنات الغابة أكثر من حبه للناس .

— هل هو جندب مطبخ (بوهيمي) كنت تلتقين به بعض الليالي قرب (البراد) وأنت ذاهبة في طريقك لتناول كوب من الماء ؟ ...

وعدت أجيبه في أسى حقيقي وأنا أتجاهل مداعبته : لا ... ولما لاحظ حزني الصادق بدت علائم الجد على وجهه واسترسلت أحدثه عن صديقي الجندب ... إنه جاري ، كان يقطن هذه الشجرة التي تعانق شرفتي ... وحينما أطفىء نور غرفتي كان ينشد ويهدهدني .. يغرقني صوته في حلم طفولي فيه غابات ملونة الصخور وفيه صفاء نافذة تطل على

حقل ... ضحكات الجيران التي طالما أرقتني صارت تذوب في براءة لحنه ، وأغنية ابنتهم البلهاء المبتذلة لم أعد أسمعها ... حتى صفير القطار الكئيب كان يضيع في (إلياذته) البدائية ... أسابيع عديدة وأنا فرحة به ، بأناشيده .

وانفجر أبي ضاحكا ، وحاولت أن أجاريه في ضحكه ففشلت . . .

... لأن الجندب اختفى . لأن صفير القطار المهترىء سيحملني من جديد إلى رحلة صفراء في حقول محروقة الحشائش .. لأن ضحكات الجيران الساهرين ستتسلق من جديد أرجل سريري وتتراكم فوق صدري ... ولأني وحيدة ولم أجد بعد (قومي) أفضل الجندب على معارفي الحاليين ! ...

وفجأة ، مزقت ضحكات أبي صرخات من حديقة الجيران .. وأطللت ، ورأيت ابنتهم الحسناء التي يخيل إلي أنها دمية من لب الخبز الأبيض المضغوط ، ابنتهم هذه قد استندت إلى جذع الشجرة وهي ترتعد بدلع .. وعند أقدامها ، قرب الخد الساتاني لحذائها بقعة سوداء تلطخ الأرض ! .. وخطيبها الشاب يربت على كتفها مهدئاً ...

ولما سألهم والدي : ماذا حدث ؟ ..

أجاب خطيبها باشمئزاز : لا شيء. إنه جندب خبيث لعله سقط من الشجرة..! لقد أخافها اللعين لكنني قتلته ! .. وأشار إلى البقعة السوداء التي كانت تلطخ الرخام الفاخر !! .

وفي أقل من دقيقة سمعت من جديد أغنيتها المبتذلة . وظلت عيناي معلقتين بسواد البقعة الدامي الذي أخذ يتسع ويتسع حتى غمر كل شيء !! ..

دمشق ١٩٦١/٧/٤

السفر .. أهو نزوة همجية في مطاردة ما أجهله ؟!

محفظتي الجلدية الكبيرة سعيدة لأنها قلما تستقر في ركن خزانتي .. إذ لا تكاد أنامل الغبار تمسح خدها ، حتى أنتزعها من موضعها ، لأحملها معي في رحلة جديدة ودرب جديدة .. فأنا أهوى السفر ، حتى ليخيل إليّ أن غيمة شروداً تقطن أعماقي وتظل تلوب وترهقني في بحثها المضني عن أفق سري .. تحب أن تبعثرها نسمة وتلمها نسمة .. يغازلها قمر وتلثمها نجمة .. تطل على غنج بحر وترف بيدر ، ونزف شفق ..

أحب الرحيل .. كلما دارت دوامات المتاعب والأحزان حول عنقي وعربدت ، وضغطت ، ألمح في الافق البعيد شبحاً وردياً لمدينة فضية القباب تغمز لي ، كأنها رسول من المجهول ... ما ألذ أن يكون في الحياة مجهول نسعى وراءه ، نسكن إليه عندما تبدو الأشياء المزيفة على حقيقتها .

* * *

هل هي رغبة في الهرب ؟ ومن أي شيء ؟ من ملايين الأسئلة التي تنصب مع كل دقة ساعة صامتة ؟ إن كنت هاربة منها ، فأنا هاربة إليها .. لأنني أهرب من غموضها ، إلى غموض المجهول وعتمته السحيقة .. أبداً ندور في حلقة لاهثين .. وكأنما نحن نحب دوراننا وجهلنا وعذابنا .. محكوم علينا أن نحبها لأنها تشدنا إلى التراب ، ولأننا تراب عطش لا يرتوي ..

هل هي نزوة همجية في مطاردة ما أجهله ؟ أم جوع إليه ؟ .. لا أدري .. كل ما أعرفه انني أحس فجأة أن علي أن أنطلق .. يسكرني انطواء الاسفلت تحت عجلات أربع .. يسكرني عدو ظلال أعمدة الهاتف إلى الخلف لاهثة مذعورة .. تسكرني أنات المحرك ويلذ لي منظر عامل محطة البنزين بوجهه الملطخ بالشحوم والذي يذكرني بدروب لا نهاية لها ..

وأنطلق .. وتهدأ الغيمة إلى حين ، وكأنما يرضيها بحثها عن أرض طيبة تنعقد في سمائها مطراً طيباً لتبدع فيها وتخلق شيئاً ما ... لتغزل شراعا ما عند نافذة مورقة ... وبلادي جميلة .. واللاذقية جميلة .. بحرها غنج وبيدرها ترف وشفقها نزف خمر عناقيده طيب وسكر ..

واللاذقية وديعة وطيبة ومعطاء كعروس خجلى .. ما عرف البحر استسلاماً لوشوشاته أرق وأحلى من استسلامها وخفرها .. فهو يداعبها بنشوة أول شراع عانق نسمة .. ثم يهدأ لحظة عندما تتعانق قرب أفقه نظرات متلهفة جاءت ترقب لحظة الغروب ... وتنزلق الشمس إلى أحضان البحر ، فتتفتح في زرقة دامية شهية ، كأنها وردة غجرية وحشية الحمرة ، ما عرفت أحلى من أعراسها في بحر اللاذقية وتفتحها المثير في الموج الدافىء ...

لم أجد في « الفرلق » عندما زرتها للمرة الاولى منذ أسابيع (بئر التمنيات) .. لم أرم في أية بئر بقطعة نقود فضية وأنا أغصّ على دعاء صامت ، أهم ما فيه أن أعود إلى « الفرلق »* .. لكنني عدت .. عدت إلى الغابة التي توحي بداءتها بالصدق ، وتملأ غرورنا بخشوع راعش أمام جبروت الزمن ... عدنا إلى الغابة بوجوهنا عارية إلا من الحقيقة ... فالشعاع اللامرئي يمسح هناك بصمات الزيف عن خطوط وجوهنا .. وتنتصب الانفعالات جريئة حقيقية فخورة بصدقها ..

وتئن الغيمة — التي تسكنني — وتتلوى .. تريد أن تتيـــه في دروب « كسب »** .. ونمضي .. وتلوح « كسب » في صدر الجبل ، وشماً بدوي الرسوخ .. غاباتها الغامضة متكبرة ، لا تبوح بأسرارها .. تتشبث بالضباب الشفاف المتصاعد من أعماق وديانها ، وتلتف به في غلالة من سحر وترفع .. فأقف بين القمم ، وأشهد البحر يرقبها بحسرة عاشق سئم الجزر ، وغلبه حنين يائس إلى عناق قمة .. عبثاً يتلهف .. القمم تغرق في أحضان النجوم عندما يظلم الضباب ، وتلهث القمة .. وانطلق من جديد في الدروب البعيدة لأن غيمتي الشرود نهمة لا تشبع .. وبلادي جميلة ومعطاء ..

* * *

---

* الفرلق : غابة بديعة في شمال سوريا .

* كسب : قرية ساحرة في شمال سوريا .

ونمضي من جديد ..

عند خد « مصياف » يسترخي (وادي العيون) عجيب الخضرة والنضارة .. يتدفق من وهداته وأغواره صفاء مياه يشبه صفاء عيون أهل الوادي .. وتهدأ الغيمة .. وترقب في الجبل المقابل خيوط دخان تصاعدت من دار وديعة بعيدة .. ويخيل إليها انها تشم فيها رائحة طعام دافىء ملحه حنان وثقة ... وترتعش الغيمة وتهدأ .. وتحدق من جديد فترى شجرة وحيدة بعيداً في قمة الجبل .. شجرة غريبة وكئيبة كأنما لم تحس أن في الوادي القريب ملايين الشجر الصديقة . وفي السماء فوقها بدر يطل بود دونما ترفع ..

وترتعش الغيمة وتحدس أن قدَرها هو قدر الشجرة النائية لا الدار الوديعة .. وتنعقد في عقمها قطرة مطر وهي تهذي ... بلادي جميلة يا دروب التيه ..

دمشق ١٩٦١/٨/١٥

المأساة الحقيقية أن تستحيل الأشياء إلى ملل

من منا لم يعش أسطورة السأم ؟ .

حينما يستحيل وجودنا إلى قطار يلهث برتابة ، سجيناً بين قضيبين فولاذيين مهترئين ، لا يعرف في أي نفق مظلم ألصقا بعجلاته ، ولا يعرف متى يسلخ عنهما ..

من منا لم يعش أسطورة الضجر ؟

حينما تتفجر اللاجدوى من الأشياء ، والقلق الذي كان يلهب انفعالاتنا يبدو أبله سخيفاً .. الحب .. الفن .. الخلود..شعارات زائفة فيها الكثير من مكابرة عاشقة فاشلة .. وتصاب حواسنا بلعنة (ميداس) فيستحيل أي شيء يقع تحت طائلتها إلى حفنة من دخان ضبابي ثقيل .. حفنة من ضجر . لا مهرب من طاحونة الملل التي تسحق وجودنا . ونستسلم . أي نصر نبتغي ما دام محكوما علينا بأن نموت ؟ ..

* * *

هل تعرف أسطورة (ميداس) ؟ ..

كان في غابر العصور مدينة ككل المدن .. لها سحابة ومئذنة وتوابيت وثياب عرس ، وشارع تتزلق فيه وجوه عيونها مغاور حيرة وقلق واحتجاج حار ... وكان ملكها الذي يدعى ميداس مغرماً بالذهب . وظل أبداً يتوسل إلى الآلهة كي تمنحه المزيد ، حتى حققت الآلهة رغبته ، بأن جعلت كل ما تلمسه يداه يستحيل إلى ذهب وهاج .. فكان طعامه يستحيل ذهباً قبل أن يمضغه ، وابنته تستحيل ذهباً قبل أن تبارح شفتاه خدها .. وبعد أيام استحال كل ما في المدينة ذهباً .. وتفجر السأم من كل شيء .. وغرق (ميداس) في إحساس لزج بلا جدوى الأشياء .. ومات ميداس يوم بدأت حكاية الضجر وخمد الشوق والقلق ... ومرت أيام وأيام وولد ملوك وصعاليك .

انتصبت مدن وهوت مدن ولعنة (ميداس) تنسل رعناء تتغذى جذورها من لعنة الموت .. من لحظات الوعي المفاجىء بأننا سنموت دون أن نمنح حق الرفض أو الاختيار .. هكذا فجأة ، نموت . قد يحدث هذا قبل أن ننجز القصة التي نكتبها . قبل أن نحصد موسمنا الأشقر ، قبل أن يستدير البدر عند كتف الغابة ونشتري الثوب الأزرق المبتغى للحبيبة ! ذات يوم سنشارك أحقر بعوضة في الغدير مصيرها .. سنموت ! ! .

كفاحنا من أجل الحب والفن يبدو في تلك اللحظة مضحكاً ، وندرك أننا قطيع يتلهى بالشجار اللامجدي ، ريثما يستيقظ الجزار وينتقي ضحية اليوم .. واننا سجناء المارد (بوليفيموس) في مغارته المرعبة بعد طول تيه في البحار مع (أوديسيوس) . عينه المنفردة في منتصف وجهه المشوه تطل على رعبنا وشهقات ذعرنا .. تسخر من حضارتنا وأشعارنا وأغانينا . ننهار في زاوية الكهف . لا فائدة من المقاومة ما دام المنتصر والمهزوم يشتركان في مصير واحد أمام المارد « بوليفيموس » .

* * *

هذه الخواطر كلها توهجت فجأة حينما سمعت رجلاً يهتف بصوت عتيق رهيب الاستسلام : « سبحان الحي الذي لا يموت ! » وجنازة تمضي .

كنت ساعتئذ غارقة بين أكداس من الورق ، في غرفة فضولية النوافذ أضحك مع زملائي ، أجيب رنين الهاتف . أكتب ، وخيالاتي المحمومة تتفجر من قلمي ، وصريره الخاص على الورق أبواق نشوة تحملني إلى عوالم أنا خالقتها ، وقصور أنا سيدتها .. كنت أكتب .. أنتشي أخلق وأدمر .. أحيا ..

وتسلل الصوت باستسلامه المرعب يصرخ : « سبحان الحي الذي لا يموت »

خرجت إلى الشرفة . أطللت على موكب الموت . سيارات تتبع صندوقاً راكضاً نحو قبر ما ، تلاحق احداها الاخرى كسيل من النمل الأبله يتحرك بقدرية عمياء . في الشرفة المجاورة شاب اقترب كثيراً من زميلته وأطبقت يده على يدها الممسكة بالافريز وكأنه يقول لها : لماذا تهربين ما دمنا سنموت ؟ .. استسلمت لأتون يده . أحسست برغبة في أن أنفجر في قهقهة لا معنى لها .. ليست ضحكاً وليست بكاء . مجرد تنهدة سأم . عندما يقبلها سيفهمان معنى اللاجدوى ..

وعدوت إلى مكتبي أحمل معي « لعنة ميداس » .. النوافذ الفضولية تتقلص وتختفي .

جدران الغرفة تظلم وترتفع . الأصدقاء يغورون . لا أحد . رعب يعربد في ذرات دخان بليد .. يزحف .. عيناي معلقتان بفجوة في السقف . تضيق . النجوم تذبل وتختفي . ليل ذعر أبدي ينشر شباكه مع عناكب رخوة ولدت قبل أن نولد . لا كوة في السقف . الغرفة تابوت من هلع ووحشة .. عين (بوليفيموس) تطل من كل مكان محمومة ساخرة . تظل تقترب . ميداس يئن في ركن ما . صفحات قصتي التي لما تنته تتطاير . تماثيل تعدو . كلمات تقفز من كتب صفر وتختفي . الدوامة خانقة . ميداس لم يعد يئن . الشاب الذي كان يغازل صديقته في الشرفة ينسل من الدوامة ويبسم لي .. سننتصر معاً . أمد يدي لأتحسس وجهه . يستحيل فجأة إلى جمجمة صفراء مرعبة الهوات . لا مفر . يغمرني إيمان حقيقي بأن لا مفر . وأرفض الأشياء . لا شيء سوى الموت ، من يهرب من التابوت؟ وأهوي في لامبالاة ضجرة ، حينما لا نقاوم ، تختفي الأشياء التي كنا نقاومها . ميداس لم يعد يئن ، وأنا لا أشعر بشيء .

* * *

وأخرج من المكتب وأنا أحمل تابوتي وأدور به ، وأنا أتجول في طرقات مدينتي التي استحالت الى ملل ..

أحياناً تستحيل الأشياء إلى ملل .

أحياناً فقط !! . تلك هي المأساة الحقيقية .. (ميداس) اعتاد ضجره ، واستراح إلى سكينة يأسه .. أما نحن .. فلعنة ميداس تنحسر عنا في فترات طويلة ، فنعود ننحت التمثال من جديد ، نروي الموسم الأشقر من جديد .. وفي لحظة وعي ممزقة ، نرفض ولا نبالي من جديد .

ونظل نتأرجح بين سكينة اليأس وعذاب الأمل .. ونظل نحترق في مباخر الفن والحقيقة ولا نفنى .. نشارك (بروميثيوس) مصيره في كل لحظة .. ان راحتنا الكبرى هي نفسها هزيمتنا الكبرى .. تلك هي المهزلة ..

دمشق ٦١/٨/١

ثار عندما اكتشف اسمه !

لما هبطت من الطائرة ، كانت تحمل في عينيها أصداء قديمة لصرخة (ميجانا) عند جفن الوادي ، (لأبو الزلف) و (عتابا) ، وليال دافئة موشاة بعبير الياسمين .. لو يضم عنقها المتعب طوق من ياسمين .. يغرقها عبيره في حلم شرقي من زبد عطري أبيض .. دارها ! .. تذكر أنه كانت في الدار شجيرة ياسمين إلى جانب (البحرة) العتيقة ، ومياهها المتناثرة بغنج شلال من نزوات راقصة ... وهي اليوم قد عادت تحمل أصداء جائعة (لأبو الزلف وعتابا) ، وليال دافئة موشاة بعبير الياسمين .

هكذا رأيتها ، كما رأيناها جميعا بينما هي تهبط سلم الطائرة ، وتحمل حقيبة في يدها ، ثم تستبدل بها طاقة من الورد قدمتها لها مواطنة من بلادي .. إنها مغتربة ، عادت لتتحسس الجذع الذي أنبتها ، لتدس برأسها بين الجذور ، وتشم رائحة التراب ، طعم التراب .. عجيب هو التراب هنا ..

لم تكن وحدها .. كانوا عشرات من الشبان والشابات والكهول . مجموعة إنسانية متباينة السن والمشارب ، جاءت لتسجد لحظة ، لتبحث عن أغنية « ميجانا » ظلت ضالة في جفن واد ، يوم انطلقت من حناجرهم الطفلة منذ أعوام بعيدة .. أحسسنا منذ الوهلة الاولى أن في وجوههم شبه نداء ، وشبه بوح يجذباننا .. هتافاً أبح ينسل خجلاً مشتاقاً من مسامهم .. ان فيهم الكثير من كآبة الشرق الرصينة ، من روحانيته البخورية الشفافة ..

وحملنا حقائبهم . كنا اخوة . أحسسنا بأنهم من أهل البيت .

أحدهم قال ان اسمه خليل .. ثار وأرغى وأزبد حينما اكتشفت ان اسمه في القائمة هو (شارلز) . قال ان له أمنية في حياته : هي أن يزور قبر صلاح الدين . وتحققت رغبته حينما قضينا اليوم التالي كله في زيارة معالم المدينة الأثرية ...

وهنا اكتشفت أمراً غريباً هو أننا نجهل مدينتنا !! ... لماذا ننكر ؟ ..

* * *

لماذا ننكر ذلك ؟ ...

هل زرت الجامع الاموي وقبر صلاح الدين وكنيسة حنانيا والبيمارستان النوري والمدرسة العادلية والقلعة الأثرية ؟ هل تعرف تاريخها وقصتها ؟ هل رأيت متحف دمشق الذي يضم بين جنبيه أقدم حضارات العالم ؟ ..

هكذا تساءلنا جميعا (نحن المتطوعين كأدلاء لإخواننا المغتربين) . وفي لحظة صدق وتواضع ، اتضح اننا لا نعرف الكثير عن آثارنا .. هلا طرحت على نفسك السؤال ذاته ؟ ..

لا تقل لي أنك لا تحب الاثار ، وانك تكره الأشياء الجامدة والمهترئة والميتة ...

فالأشياء المهترئة هي أشياء ذات ماض ، ذات حضارة ، مرت عليها ليال وليال ، في كل ليلة ألف نسمة متعبة ، وألف حكاية لاحتضار فراشات ممزقة ، ولفجر شرانق ملتمعة ، وألف بصمة لإنسان .

وآثارنا ليست ميتة .. إنها حية لأن قصتها لم تنته بعد .. قد تُعتبر ميتة إذا قيست بعمر الإنسان الذي يقدر بمئة عام ، لكنها كيان رائع يتحدى مقاييس بشريتنا ... انها ليست شيئاً جامداً .. إنها عالم متجدد حي . لحجارة المعابد صوت يروي ملاحمها ، ولنارها ظلال تفصح كظلال وجه عاشق .. ولفسيفسائها صدى رنين محبب وديع .. لكننا مع ذلك لا نعرفها حق المعرفة ، فما هو السبب ؟؟ ...

إن أول شيء نفعله حينما نذهب إلى أية مدينة ، هو أن نزور آثارها ، فلماذا لم نتعرف حتى اليوم على كنوز مدينتنا ؟؟ ..

لا أعتقد أن السبب يرجع إلى عدم احترامنا لها ، فكلنا يقدرها ويشعر — ولو لم يرها — بأن في مدينته ما يستحق الفخر .. أعتقد أن السبب الوحيد هو أنها قريبة ، في متناول يدنا !! ... ان قدرتنا على زيارتها أي يوم دون أن نتكبد مشاق السفر تجعلنا باستمرار نهمل الأمر ... لسهولته !! فهي — بوجودها قريبة — تبسط نفسها أمام أعيننا ، وتغمرنا بإحساسٍ من التملك المطمئن ، الذي يقود إلى الإهمال ...

* * *

إنها حكاية الزوجة والصديقة ! .. الزوجة التي كانت رائعة يوم كانت صديقة ، يوم كانت شيئا بعيدا غسقي الغموض ، ثم أصبحت زوجة مدهشة لا ينتقص من روعتها الا امتلاكه لها .. فهي لم تعد تثير في النفس إحساساً بالقلق ، وكلنا يحب قلقه كي يشعر باللذة حينما يطمئن ، وكلنا يحب الأشياء البعيدة كي يعيش نشوة الركض ونشوة التعب ونشوة النصر ..

وآثارنا ، « الزوجة الجميلة » التي لم نعد نحصي مفاتنها ، لأننا نمتلكها ، تستحق نظرة تفرس وإمعان ..

١٩٦١/٧/٩

العيد والطائر الأخضر

أنا لا أحب العيد .. فالثياب الجديدة لا تبهرني .. والهدايا وكلمات الاطراء لا تهزني في قليل أو كثير .. أما الحلويات فأنا لا أذوقها إلا في حالة الجوع وأفضل الخبز عادة .. وأما الأهل والأصدقاء فأنا أكره أن يكون عليّ أن أظهر عواطفي نحوهم في مواسم معينة .. وأما الآخرون فان تفكيري فيهم لا ينحصر في مدة أيام ثلاثة .. ومظاهر الفرح والضجيج أيام العيد تجعلني أنظر اليها بريبة وتساؤل ، لأنني أعتقـــد أنه كلما كان الفرح عميقاً وحقيقياً ، كان التعبير عنه أقل تبهرجاً وإفصاحاً . وأنا أحزن في العيد ، اذ يخيل إليّ ان في زوبعة الاحتفال والضجيج المبتهج نوعاً من أنواع الافتعال والعدوى العاطفية الجماعية ، أكثر مما فيها من أحاسيس فردية صحية .

مرة : أيام كنت طفلة ، سألت أبي وأنا أشرق بغصة الخيبة : « ماذا في العيد حتى يحبه الناس هكذا » .. ؟ وضحك يومئذ من تحرري الساذج وقال : « يوجد طائر أخضر مذهب ينطلق في العيد من قوس قزح بعيد ، ويحدث الناس حديثاً لم يسمعوا مثله قط ، ويجيب عن أسئلة أكثر الاطفال مشاكسة ، مثلك » .. إذن الطير الاخضر المذهب المسجون في قوس قزح بعيد ، لن ينطلق إلا في العيد .. لأجلي وحدي .. وعشت أعياداً كثيرة مملة .. فأغاني الطائر الأخضر المذهب لم تشرق في نافذتي ..

ومرة ، هربت مع بعض الصديقات في رحلة إلى تدمر .. إلى حيث كان فجر العيد شيئاً صوفياً علوياً مدهش الصفاء والصدق والضياء .. لا ضجيج .. لا مفرقعات شريرة .. لا لغط .. لا قيود .. ولا ثوب جديداً .. لا واجبات وزيارات وكلمات مهيأة في قوالب خاصة بالعيد .. لا شيء سوى أنا ، الجزء من (الأنا) الذي يمت إلى السماء بصلة ، أخشع لبراءة الرمل واتساع الافق وصمت الإله الضاج وهمهمات الرياح عند شفاه التماثيل حتى لأخالها تنطق . وانطلقت يومئذ وحدي في درب الأعمدة ، عارية القدمين ، أرفع للإله في كل شيء جميل صلاة النشوة والابتهال ، وأبحث عن الطير الاخضر

لأجد نفسي الحقيقية . في صدق حكاياه .. أفكر كما يحلو لي ... أخشع لحقيقة انتصار الانسانية على الفناء .. فزنوبيا حية تهمهم في مكان ما .. كأنني أحس لسع أنفاسها خلف أذني .. والمجامر في أعلى الأعمدة العتيقة تخشع لتأوهات البخور وتضوع الطيب .. ما كان أحلى رائحته .. ما كان أبهى شوارع تدمر وهي تفور بحياتها الماضية حينما تبعث حية ولو لبرهة واحدة في خاطر إنسانة ما .. وتمددت على الرمال بينما ولدم الطائر الاخضر عند آخر عمود في الدرب .. واذا بحكايات الريح تنسل من منقاره مفهومة واضحة .. جاء الطائر .. بلا تعازيم من حلوى .. بلا طقوس الثوب الجديد واللفظ الرشيق .. جاء في قداسة الصمت والغربة ونشوة الحقيقة . وخلف الطائر الاخضر المذهب كان وجه أبي يبسم عند الافق وكان عيدي الاول ..

دمشق ١٩٦١/٧/١١

يا رأسها الأشقر .. أترجم الحضارة السوداء بالحجارة ؟

دمشق كانت تتململ في أحضان الحر بوداعة رغيف يشوى في التنور حينما خرجت من داري ، وفوجئت بلفحات ساخنة تلسع الخدود والمقل ، وتترك الانسان في حالة من الاستسلام المعذب ، والاسترخاء الفكري البليد .. كنت قد قررت الذهاب إلى موعد ما ، لكن شمس الساعة الرابعة ، وتيار الهواء الرطب الذي انسكب على وجهي حينما مررت بباب إحدى دور السينما أغرياني بالدخول اليها دون تردد . لم أقرأ اسم الفيلم ، لكنني اكتفيت بلوحة كتب عليها : « الصالة مجهزة بتكييف للهواء » .

جلست في مقعدي ومددت ساقي إلى الأمام وبدأت أعد نفسي لاغفاءة شهية .. وأطفئت الأنوار ، توالدت الصور فوق الشاشة .. كانت منذ البداية جذابة ومؤثرة . لم أنم . الفيلم كان يحكي قصة حسناء مكسيكية خلاسية-ماتت أمها الزنجية يوم وضعتها .. وبدأت مأساة هذه الحسناء (الملونة) يوم تزوجت من أميركي « نقي الدم » ! ! ...

ولما عاد بعروسه إلى أهله ومدينته ، فوجىء بأسلوب الجميع المهين في معـــاداة زواجـــه .

وتنبهت حواسي وأنا أرقب إنسانين يكافحان رسوبات مجتمع لما يصل بمدنيّته إلى التحرر من سخافات توارثها . ولذ لي أن أرقب وجوه الناس التي كانت مشدودة إلى الشاشة بذهول متمرد واحتجاج حار ..وفجأة .. علقت نظراتي برأس أشقر وعنق أنيق . كانت على ما يبدو أمريكية أو انكليزية ، ترقب الفيلم بلا مبالاة مؤسفة أثارت حنقي .. وفي أحد المواقف المؤثرة جداً ، عندما تقف البطلة الملونة الحسناء بعينيها الخضراوين الكثيبتين أمام المحكمة لتدافع عن نفسها ، ولتثبت أنها أخبرت زوجها قبل زواجهما بأنها زنجية الأم ، في هذه اللحظة بالذات ، عندما أحسست باختناق رطب في حاقي ، وعندما كانت سيدة بجانبي تمسح دموعها خلسة ، رأيت (الأوروبية ؟) المصون ، تنفجر ضاحكة

بسخرية ! ... لا أدري كيف تمالكت نفسي ، ولم أنهض لأغرس أصابعي في خديها ، ولأدير وجهها إلى الشاشة بوحشية ملايين الأكف السود الدامية ، ذات (الحضارات) الإنسانية ، التي تقف (المدنيّات) الفجة ، عاجزة عن فهمها واحترامها .. حضارة ممارسة الانسان لانسانيته . تمنيت أن ألصق على وجهها عينين عربيتين لترى بهما ، ولتدرك أن زيادة في الحبيبات الصباغية لا تحيل الانسان حيواناً ، وان حرارة الأعوام التي تحيل الفحم الأسود ماساً قد تكون صهرت أعماقهم السمر فأحالتها إلى مغاور ماسية قوس قزحية الوميض .. لكنني أحسست فجأة أنني أتحامل عليها ، وأريد أن أصب على رأسها الأشقر جام غضبي من مجتمع أصابته لعنة غرور المدنيّة ..

خرجت من السينما . استقبلني الحر من جديد . أذكر أن أحد (التاكسيات) وقف أمامي وفتح الباب . ارتميت بداخله دون وعي مني . لم يكد السائق يدير المحرك ليعاود سيره حتى استوقفه صوت ينادي (تاكسي) .. وفوجئت بها تحمل رأسها الأشقر وتقف به أمامي ، دون خوف ! ! .. وبلطف رجت أن تقاسمني سيارة الأجرة . ووافقت.

واستدار رأسها الأشقر وسألني عن وجهتي . لم أكن قد قررت بعد إلى أين أذهب . قلت أحدثها بلغتها : « اذهبي أنت أولاً ، لست على عجل من أمري » . شكرتني بعذوبة لزجة ثم حددت للسائق مكاناً بعيداً جداً في (المزرعة) .

حاولت ألا ألتفت اليها كي أظل مهذبة ، لكنني أحسست أنها كانت تسترق النظر إلى وجهي ، وإلى شعري الأسود جداً وبشرتي السمراء . قال الرأس الأميركي فجأة : انك تتقنين الانكليزية ، هل أنت أجنبية ؟ ..

— ماذا تعتقدين ؟ خمني ...

— اسبانية ؟ .. انك لطيفة جداً على كل حال لأنك قبلت مشاركتي سيارتك .

كانت تحدثني بمودة لا حد لها . لم يعد بوسعي أن أغالب رغبتي في مشاكستها : فأجبتها : « أنا ملونة ! ! .. أبي من أصل أسباني وأمي زنجية ! ! .. »

هتفت ورائي باشمئزاز مذعور : زنجية ! ! ...

وشاهدتها ، تلملم طرف ثوبها وتتكوم في ركن السيارة ، كأنها لم تكن قبل لحظات تتحسس سمرتي باعجاب ! . كأنها لم تكن تتودد إلي وتتملقني .. ماذا حدث ؟ .. هل ثار كبرياء المدنيّة ؟ . الغول الأسطوري الأعمى ، ألم يشبع ؟ .. آه يا رأسها الأشقر ،

يا مدنيّة الزجاج الملون ! .. أترجم الحضارة السمراء بالحجارة ؟ ... جرحني تصرفها كانسانة ، فأصررت على ازعاجها ، واسترسلت أسألها : « ألا يبدو عليّ أنني ملونة ؟ .. وزنجية ؟ »

قالت بقرف : بلى ! .

لم تحدثني بعد ذلك وإنما جلست في السيارة كأنها وحدها التي تركبها .. كأنه لم يعد لي وجـــود ..

استحلت إلى ذبابة .. كل ما فيها كان يوحي بأنني ذبابة .. وأخيراً أمرتِ السائق بأن يقف أمام بناء كبير وتحفزت للنزول ، ثم لانت ملامحها وهي تهبط ، ونظرت إليّ بتودد مهين وهي تقول : سأدفع نصف الأجرة ، وتدفعين أنت نصفها الآخر !! ....

وهنا ، هنا فقط خنقني قرف حقيقي . كنت طوال الطريق ذبابة ، ثم استعدت (انسانيّتي) بنظرها لحظة الدفع فقط ! ...

ولما تحركت السيارة من جديد ، وغيب الغبار رأسها الأشقر ، تحسست سمرتي البنية بكثير من الاعتزاز ، واستنشقت هواء مدينتي النقي بكثير من النشوة .

دمشق ١٣/١٢/١٩٦١

ما رأي طيور الغابة بهيئاتنا الجرادية !

كنا جماعة من الأصدقاء والصديقات أقسمنا على الانتحار بالسيارة ! ! ...

كان هذا على الأقل رأي صديقة رفضت أن ترافقنا في رحلتنا فور سماعها لمخططها ، وعلقت قائلة بأننا مجانين نحاول تجريب طريقة مبتكرة أرستقراطية للانتحار ، وذلك باستخدام سيارة فاخرة ، عوضاً عن « حبل غسيل » أو سم الفئران .. وهكذا كان ...

طريق الصحراء بين تدمر وحمص شاق ومرهق .. لكن عناق ذرات الظلمة والنور ساعة انبلاج الفجر يرسم صورة حلوة لحقيقة الحب .. أبداً يغازل الليل النهار ويلاحقه .. لا يسأمان هواهما ، لأن شفاه الضياء ما تكاد تلامس شفاه الظلمة حتى تذوب فيها وتتلاشى . مخلفة حلاوة الوهم والشوق .. إنه الحب الحقيقي لأنه المستحيل ! ! ..

* * *

وتدمر ... لم تلح من بعيد كأكثر المدن ، وإنما انبثقت فجأة في كف الصحراء ، كأنها رؤيا شرقية انحسرت عنها الرمال ساعة وطئنا أحد المنحنيات ... ووجدتها جميلة كسراب .. حزينة ومهزوزة كأسطورة ...

ولما غرقت شمسها في المعبد الأسمر ، وفاضت الظلمة من حوامل المشاعل المطفأة منذ أمد طويل .. أدركت أن الليل في تدمر أجمل من ليل أي مكان آخر عرفته .. ظلال الأعمدة تتلوى ، كلما سقط عليها نور سيارة تهيم بين الرمال .. وهسهسات الريح في المقابر البيض ، تروي لذهولنا حكايا غامضة لم تمسها شفة .. يا لخلود الموت وكبرياء الصمت وهذيان الصمت .. يا لذرات الرمال ونبضها واحتجاجها وشوقها .. يا ليل تدمر .. يا عجينة طيب ورؤى وتهاويل خلفناها وراءنا لننطلق في سباق محموم مع الشمس إلى غابة « الفرلق » .. ولنكسب السباق ..

تدحرجنا من السيارة بين الموت وما يشبه الحياة . السائق ظل ملتصقاً بمقعده كأنما

أضحى المقود مجرد امتداد (بلاستيكي) لعظام يديه .. غابة الفرلق عالم هدوء رصين ، يسخر من متاعبنا المعششة في (دهاليز خواطرنا الحضارية) ، والتي كانت (تنعب) بين فترة وأخرى ..

بداءة ضخامة الأشجار ، تُشعرنا بالضآلة .. بوخزات مبهمة ساخرة .. بأحداق مسحورة تطل من غيمات معلقة عند أهداب الغابة ، تضحك من ثيابنا ومجاملاتنا ..

والطيور في الغابة مدهشة .. إنها جريئة ، اقتربت من صديق لنا وأخذت تحدق في بندقيته بما يشبه اللامبالاة .. أحسست أن لها شخصية خاصة بها ، كثيرة الاعتزاز . لم يكن في أعينها أية رواسب من هباب مصنع ، أو ذعر من زعيق حافلة .. فظلت براقة متحدية ، جريئة ، كالحقيقة ، شفافة كالصفاء .. وظلت أقدامها خالية من دمامل ، تخلفها وقفات مرهقات على أشرطة الكهرباء في المدينة ..

سألتني إحدى الصديقات : ما رأيك بهذه الطيور ؟

وأردت أن أجيبها .. لكن اتساعاً عجيباً وعمقاً مرعب الأغوار في نشيد الغاب جعلني أصمت فجأة ، أشعر بالضآلة ، بتواضع لذيذ يشدني إلى عيني حصان كان يعبر الغاب ، وإلى فراشة أصرّت على الوقوف فوق صدري ، وإلى الطيور الكبيرة وفضولها اللذيذ بينما هي ترقب صديقاً لنا انتحى أحد الأركان وغطى وجهه بالصابون استعداداً لحلاقة ذقنه ..

ما رأيي بالطيور ؟ ولماذا رأيي أنا بالذات ؟ بل ما رأي هذه الطيور فينا ؟ .. أنا هنا في الغاب قد فقدت امتيازاتي التي تمنحني إياها لمعة حذائي ، ورصفة شعري المصفف وشهادتي المعلقة فوق البيانو ... لم يبق لي ، ما يمنحني الحق هنا ، في التحذلق والنقد والتكبر وفرض الرأي ، أكثر مما يعطيها .. لم يبق مني هنا .. إلا (أنا) ...

* * *

ترى ما رأي الطيور فينا ؟ في صديقنا الذي ما زال ينحت ريش خديه بأداة حادة يمكن أن تقتله لو ... ما رأيها في تَحَلُّقِ أكثرنا حول « صحيفة » تثير نقوشها السود في نفوسنا السعادة أو الغضب أو النقاش الحاد ؟ .. ما رأيها في تغامزنا وريائنا ، والسراويل التي نسكب أعضاءنا فيها ؟ ألا تجد شكلنا فيها ممجوجاً كجرادات أفلتت من قيود الطبيعة وظلت تنمو ؟ .. هل كان يضحكها أسلوبنا في الأكل واستعمالنا (لساقينا الأماميتين) مع

أفواهنا بينما هي تلتقط الحب بمنقارها بأناقة ونظافة ؟ .. تراها تحترمنا ؟ تخافنا ؟ ترثي لنا ؟

الرحلة انتهت . لكن أعين طيور غابة « الفرلق » تلاحقني كلما كذبت ، وكلما سخرت من إنسان حتى ولو كان يستحق السخرية ، وكلما منحت نفسي حق ابداء الرأي بالآخرين ، أو رأيتهم يمنحون أنفسهم هذا الحق ، وكلما رأيت صديقاً يتلون ، أو يزيف ذاته الهلامية التي تتخذ بسرعة شكل الوسط المحيط بها ولونه .. ولا أملك إلا أن أتساءل بحرقة : لماذا يختنق نشيد الغاب عند مراكز جمارك المدينة ؟ لماذا يتمزق عند قدمي أول شرطي سير ينظم الدخول إليها ؟ .

احتجاج تلميذة على أساليب التعليم المضجرة !

كان سلوكي في المدرسة ، شبيهاً بسلوك كائن نصف متوحش ، يمضي في الطريق المألوفة كي يحصل على طعامه ، لكنه ينسحب هارباً به إلى وكره ، ليمارس افتراس زاده من العلم بأسلوبه الخاص .

— أ . ميلن —

دمشق ٦١/١/١

شاعر يزور مع الليل (١)
« تشوسر »* وأنا

الظلمة تغفو في موقد دارنا ، وصرير قلمي على الورق يخدش سكينة الصمت .. النور الباهت ينعكس على الصفحات ويرقص متعباً على جبيني ..

رميت القلم فجأة ، وتنهدت بارتياح وأنا أغمض عيني .. الحمد لله .. انتهى المقال الذي كنت أعده عن الشاعر « تشوسر » لإحدى الصحف .. الموضوع سمج فعلاً ، وطريقة العرض مدرسية كلاسيكية لا جاذبية فيها .. ثم ان مصادر بحثي لم تتعد كتب النقد المعروفة التي لا تخلو من بعض التشويه للحقائق .. وعلى أية حال فالشاعر المرحوم تشوسر لا يستطيع محاسبتي على ما كتبت بعد أن توفي سنة ١٤٠٠ ..

وإذا احتج النقاد على بعض آرائي قلت لهم : مذهب جديد !! .. وإذا بالغوا قلت لهم الحقيقة : هكذا درّسوني في الصف ! ...

سأنهض الآن لأنام .. وفي الأسابيع المقبلة سأكتب لقراء الصحيفة عن بايرون وكيتس وبراونينغ وغيرهم من أحبائي الشعراء ..

وبدأت أتثاءب .. وفجأة .. جمدت .. كان الباب يفتح ببطء شديد .. وصريره البارد يملؤني ذعراً ... وبدأت أفكر بسرعة .. لا أحد من أهل الدار يجرؤ على دخول غرفة مكتبي .. أخي يفضل الذهاب في رحلة إلى القطب على المغامرة بالجلوس بين أكداس كتبي المتناثرة بفوضى سيرك يوم الرحيل ! ..

من يمكن أن يكون زائري ؟

ورأيته منتصباً عند الباب يتأهب للدخول .. تلتمع عيناه السوداوان ببريق عجيب

---

* الشاعر جيوفري تشوسر (١٣٤٠ — ١٤٠٠) Geoffrey Chaucer

لا يمتّ إلى عالمنا بصلة .. وكان أغرب ما فيه ثيابه .. ثياب القرن الرابع عشر .. وانسلت قدماه بسكون فوق السجادة دون أن تغوصا قيد أنملة في وبرها الطويل . حتى خيل إلي أنه لا يمسّها ، وإنما يطير فوقها .. أو أنه بلا « وزن » فيزيائي .. كالأرواح ! ...

ولما استعدت السيطرة على وتر أو وترين من حبالي الصوتية سألته : من أنت ؟ من أين دخلت ؟ وما هذه الثياب التي تبدو فيها كالمهرج ؟ .

أجابني بلهجة انكليزية عذبة . ولكنها صعبة الفهم :

ـ لست مهرجاً أيتها البلهاء .. أنا تشوسر أبو الشعر الانكليزي .. وثيابي أبدع ما ارتُدِيَ في قصور جنوه وفلورنسا ..

ـ من أين أتيت ؟

ـ من عالم ما وراء الضباب حيث « يوتوبيا » الفنانين .

ـ ما الذي جاء بك إلى غرفتي أيها الشبح الثائر ؟

ـ أنت أيتها الشقية . أما يكفينا ما لقيناه من زملائك الذين تناولوا أشعارنا وحياتنا بالدرس والشرح ؟ .. انكم تبررون لنا أخطاء نفخر بأنها من صنعنا .. وتنسبون لنا فضائل نخجل منها .. لقد طفح الكيل ..

ـ وما ذنبي أنا ؟

ـ أنت القطرة الأخيرة التي فاضت بها الكأس . ثم انك تريدين الكتابة عن المشاهير أمثال بايرون وشيللي .. مع أن اليوتوبيا تعج بالعظماء غير المشاهير .. إن آثارهم الخالدة بين يديك .. قد لا تلفت الأنظار لأن كاتبها لم يكن زير نساء كبايرون .. ولكنها بتواضعها الشامخ ، كالبنفسجة التي لا ينتقص من جمال عبيرها أنها تلصق خدها إلى خد التراب الندي والتي شبه بها الشاعر « ورد سوورث » حبيبته « لوسي » حين قال :

« بنفسجة .. قريبة من حجر مطحلب ..
نصف مخفية عن الأعين
جميلة كنجمة مفردة
حينما تلتمع وحيدة في ظلمة السماء » ..

وعدت أسأله بعناد :

ـ تعني أن الفرق بينهم وبين بايرون وشيلي كالفرق بين الجاحظ وأبو حيان التوحيدي ؟ .. كتبُ الأول قد طبقت شهرتها الآفاق ، وكتب الثاني بحاجة إلى من ينكبُّ على نثرها الفني المقتضب بالدرس والتمحيص ؟

ـ أجل ! .. هذا ما أعنيه تقريباً ...

واقترب مني .. تناول مقالي الذي سهرت الليل أتحذلق في كتابته .. وأخفاه في صــدره.

وأثار دهشتي أكثر من غضبي !

ـ لماذا (صادرته) ولم تمزقه ؟ ..

ـ الأرواح تكره التمزيق والتحطيم .. ثم اننا نريد الاحتفاظ به في الملف الخاص بــك ! ..

ـ ماذا تريد مني ؟

ـ أريد أن تدعينا في سلام .. كفانا ما لقينا من النقاد .. امتنعي عن استغابتنا في هذه الصحيفة .. وابحثي عن مصدر رزق آخر غيرنا ..

وقررت دون أن أفكر : أما يكفيني ما ألقاه من الأدباء ـ الأحياء ، حتى أدخل في معركة ثانية مع ... الأموات ؟ ..

حسناً .. لن أكتب شيئاً .

ثم فكرت ، فقررت شيئاً آخر : ماذا لو اعتذرت وبينت لهم السبب ، وحدثتهم عن لقائي بالأشباح ! ! .. لن يصدقني أحد ! ..

وصممت على أن أصمد .. واجهته بنظرة جمدها الرعب فبدت هادئة ، وسألته متحدية :

ـ إنني مصرة على الكتابة عنكم ..

وتخاذلت نظراته فجأة وتبددت قسوتها .. فأدركت أن الأدباء الأموات قد نسوا المساومة وقال :

ـ ما دمت مصرة أيتها البائسة الأرضية ، فلا مناص من أن يحضر شبح أحدنا إليك كلما أردت الكتابة عنه ، وبذلك تستطيعين استجوابنا ، ونقل أحاديثنا إلى القراء ،

دون الرجوع إلى كتبك المهترئة المغلوطة ... سنجيبك عن أكثر أسئلتك وإنما بشرط ..

— ما هو هذا الشرط ؟ ..

— ألا تكتبي حرفاً مما قرأتِه في الصفحات الصفر .. سيسأمك القراء وتسأمين نفسك .. اكتبي الحديث الحي الذي يدور بينك وبين الشاعر الذي يزورك مع الليل ، وانقليه إلى القراء بأمانة وصدق .. ولو فوّت عليك ذلك فرصة استعراض عضلاتك الثقافية ومعلوماتك المدرسية يا شاطرة ! ..

— حسناً .. سأبدأ بك الليلة .. وابعث لي في الأسبوع التالي بشبح ميلتون .

— لا .. سأبعث لك بمن أشاء ! .. ولكن يجب أن تعتادي الأدباء الأشباح ..

— ليسوا أكثر شراً من الأدباء « الطازجين » . على أية حال .. سأبدأ بك الآن .. استعد ..

وبدا لي أنه لم يسمعني .. انسلت نظراته خلال النافذة إلى آبار السواد في السماء حيث كان شهاب يهوي .. يحترق .. والظلام يبتلع رماده وتأوهاته .. وهتف مذعوراً :

— إنهم يستدعونني ويجب أن أعود حالاً .. انتظريني في الأسبوع المقبل ..

وقبل أن أجيب ، فتح النافذة بلهفة ، وخطا منها في الفضاء ، وطوته أمواج الظلام ..

ومضى زائري مع الليل إلى عالم يولد فيه فجر كل لحظة .. وترك لي وعداً بالعودة في الأسبوع المقبل ..

ترى هل يصدق وعده ؟ .. انتظروا معي ..

دمشق ١٩٦١/١/٨

شاعر يزور مع الليل (٢)
« بايرون »* يفاجئني

أطفأت الأنوار ، وجلست بانتظار شبح « شوسر » الذي وعدني بالمجيء . مكتبي يسبح في نور خمري مرتجف ، تبعثه النار التي تحتضر في الموقد أمامي. الظلال ترقص في الزوايا ، وتملأني برعدة لذيذة، فيها من رعشة ساحر هندي ينادي الأرواح الشاردة مع نسيمات الليل الباردة .. وظللت أتساءل « ترى هل يصدق وعد الأشباح ؟ » حتى رأيت الباب يفتح ببطء كالمرة السابقة .. وانسلت نظراتي تتحسس الشبح الداخل ، وكانت مفاجأة مذهلة ! ..

لم يكن شيخاً متعباً في ثياب القرن الرابع عشر ! ..

كان شاباً رائع الجمال مدهش الأناقة .. بقدمه عرج واضح وهو ينزلق فوق السجادة دون أن يمسّها بأخمص قدميه .

وبدأت أفكر بسرعة .. شاب رائع .. أعرج .. وشاعر . من يمكن أن يكون سوى ..

ـ أجل ، أنا بايرون ! .

هكذا قال فجأة وهو يجلس على المقعد أمامي ، وكأنه كان يقرأ أفكاري ..

وهتفت مذعورة :

ـ بايرون ! . لكنني لم أستدعك .. لماذا جئت ؟

ـ رأيت شوسر يتأهب للحضور .. ولما أدركت أنك « صحفية » لا صحفي غلبتني

* الشاعر جورج بايرون (١٧٨٨ — ١٨٢٤) Lord George Byron

« عاداتي الأرضية » .. وجئت .. تجاهلت نظراته المتفرسة وسألته : ما دمت قد جئت . تفضل . حدثني عن أيامك الأرضية .

— ولدت لورداً في أسرة ممزقة .. أبي منفصل عن أمي التي عبثاً تلاحقه بحبها .. ولما أصبحت يافعاً ، اكتشفت العاهة التي خلفوها في قدمي بإهمالهم . تألمت وأحببت . أحرقت واحترقت .. أنا « دون جوان » الشاعر المشرد .. إن قصيدتي « دون جوان » هي أعظم ما كتبت ، لأنها بالإضافة إلى ما حوت من نقد اجتماعي لاذع السخرية ، تروي قصة حياتي .. لنقل قصة وجه من وجوهها .

— ما هي قصة « دون جوان » ؟

— « تجدين .. آثار تفكير طويل ، ودموع جافة تركت بعد انحسارها أخدوداً قاحلاً عميقاً .. نبشت عنه الأعوام المسافرة ..

ذرات رمال الحياة الأخيرة

وأضحى عارياً .. لا تلوح فيه زهرة ! »

— ما هي شخصية « دون جوان » التي تقول انك سكبت نفسك فيها ؟

— « هو .. هو ذاك الذي شاخ في عالم العذاب بالتجارب .. لا بالأعوام .. وسبر أغوار الحياة فما من أعجوبة في الأرض تستوقفه .

لا الحب ولا الأسى .. لا الشهرة ولا الطموح » ..

— هل أحببت النساء ؟

— أجل .. أحببتهن بطريقتي الخاصة ! .. وغنيت لهن أعذب الألحان .. اسمعي :

« لا نزهة لنا بعد اليوم ..

حين يغرق الليل في الصمت والحرقة ..

مع أن قلوبنا ما زالت عاشقة ..

وأشعة القمر ما زالت عذبة » ..

— انك كاذب ! .. ما أحببت قط سوى نفسك يا بايرون .. أحببتَ ظلك في عيون النساء .. وأحببت المرأة لأنها ، بحبها لك ، تشعرك بسطوتك ، وسحرك الذي لا يقاوم ..

احببت المرأة كمرآة لجمالك اللامتناهي .. وأحببت ذاتك حتى انك اخترت لنفسك ما أيراه عصرك «أشرف ميتة» .. لا تدعي أنك انضممت إلى اليونان في نضالها ضد السلطة العثمانية من أجل عقيدة الحرية .. لقد ذهبت لأنك كنت تريد أن تموت .. لأنك سئمت وجودك .. ولأنك تريد أن تموت بوسيلة تليق بإنسان (رائع) مثلك ، ميتة يصفق لها عصرك وتدمع لها عيون الفتيات ..

— انك تظلمينني ..

— لم أظلمك أبداً .. ألم تقل :

« لماذا تعيش ان كنت قد سئمت شبابك الفارغ ؟

أرض الموت الكريم .. تلوح هناك ..

إذهب إلى الميدان .. وودع أنفاسك ..

ابحث عن قبر جندي ..

انه أنسب الأشياء لك ..

ثم تلفت حولك .. واختر الأرض التي تريد ، واسترح » ! .

— وماذا تعرفين أيضاً عن حبي لنفسي ؟ .

— أعرف الكثير .. لقد انتقمتَ لقدمك التي شوهتها امرأة من نساء العالم جميعاً .. ثم تمنيت لنفسك المعبودة الخلود .. فأحببت الطبيعة وتمنيت أن تمتزج بها لتخلد خلودها ..

— هذا غير صحيح تماماً وغير خاطىء تماماً ... ككل شيء ! ..

— ألم تقل :

« حبي للانسان ليس بقليل

ولكن حبي للطبيعة أكبر ...

وفي لقائي معها ، أحاول أن أنسل وأتحرر ...

من كل ما يمكن أن أكونه ..

ومما كنته ذات مرة ...

لأمتزج بالكون .. ولأحس ما لا يمكن التعبير عنه أبداً ..

ولا يمكن أن يخفى كله مع ذلك ! » ...

ــ أيتها الحمقاء .. اسمعي سبباً إضافياً لإعجابي بالطبيعة والبحر ولا تكوني كسائر النقاد ، لديهم أبيض وأسود فقط ، ويعجزون عن رؤية تموجات النفس البشرية في ذات الفنان :

« تدحرج أيها المحيط قاتم الزرقة ..

تدحرج ...

عشرة آلاف أسطول ينزلق فوق صفحتك انزلاقاً ...

عبثاً ملأ الانسان أرضه بالحكام ...

لكن سيطرته توقفت عند الشاطىء ...

وفوق سهول الماء الشاسعة ..

فإن كل حطام يطفو على صفحتها هو من صنعها هي ....

هنـــا ...

لا يتبقى أي أثر لنهب الإنسان ...

لا يتبقى سواه لبرهة وجيزة ..

ريثما يغوص كقطرة مطر ... ويهوي في أعماقك يا بحر مع تأوهاته المختلطة بالفقاعات .. بلا قبر ..

بلا جرس في كنيسة .. بلا كفن .. وبلا هوية ! »

ــ حسنا . اغفر لي « وحدانية الرؤيا النقدية » ، وقل لي هل كنت سعيداً بزواجك ؟

ــ « الأمل .. الخوف ، الغيرة والمتاعب ...

الألم الدقيق .. وحرارة الحب ..

لم أذقها جميعاً .. وإن كنت أرتدي في اصبعي سلاسلها » ..

ــ انتظر لحظة .. لدي سؤال أخير ..

لكنه لم ينتظر .. كان رماد الموقد قد امتص بقايا اللهب ، ودفنها في أحشائه .. وهوى شهاب في فضاء الليل وابتلعت الظلمة تأوهاته ورماده ..

ونهض بايرون وانسل من الغرفة وهو يهمس بعذوبة فائقة :

« عندما افترقنا في صمت ودموع

بقلبين نصف محطمين .. لنفترق أعواماً ...

شحب خدك وبرد .. وبردت قبلتك أكثر

وتنبأت تلك الساعة .. بعذابي اليوم »

واختفى .. وظلت الجدران تردد بعده :

« إذا ما التقيت بك

بعد أعوام طويلة ..

ترى كيف أحييك ؟

في صمت ودموع » ..

مضى بايرون .. وانسللت إلى فراشي في صمت ودموع .

دمشق ١٩٦١/١/١٣

شاعر يزور مع الليل (٣)
« دون »* دونما امرأة واحدة وفية

أي روح لأي شاعر ضائع سيحمل الليل إليّ ؟

هذا السؤال كان يرتسم في طيات الستائر ، ويختلط مع وهج نار الموقد فيزداد رهبة وغموضاً .. لم يطلِ انتظاري ، فقد انسل شبح زائري فجأة واستقر أمامي بلا تحية ..

لم يتأمل وجهي بفضول كما فعل بايرون من قبله .. لم ينحن على يدي ويقبلها برقة على طريقة الشاعر الأعرج الغزل .. وتجاهل فضولي واستغرابي وانطلق منشداً :

« إذهب وامسك بنجم يهوي ..
واحصل على جذور السحر الوهمية ...
أخبرني إلى أين تمضي الأعوام الراحلة ...
ومن شق قدم الشيطان إلى شطرين ....
علمني الإنصات لأغاني عرائس البحر ...
وإبعاد لسعات الحسد عن أعماقي ..
إرحل عشرة آلاف يوم وليلة ..
حتى يرسل الزمن آلاف شعيراته الثلجية فوق رأسك ...
وعندما تعود .. ستخبرني بالعجائب التي رأيت ...
وستؤكد لي حين تعود ..

---

* الشاعر جون دون (١٥٧٢ — ١٦٣١) John Donne

انه ليس في العالم كله .. امرأة واحدة وفية وجميلة » ....

ـ لا بد من أن تجد ولو امرأة واحدة وفية وجميلة ...

ـ « إذا وجدت واحدة .. فاخبرني ..

الرحلة إليها ممتعة ممتعة ...

لا .. لا تخبرني فلن أذهب اليها ...

مع أنها قد تكون جارتي الحسناء ..

فريثما تصلني رسالتك ...

وتخبرني بوجودها ....

تكون قد خانتك مع اثنين أو ثلاثة ! » .....

وأدركت وحدي أنه الشاعر (دون) عدو المرأة .. الذي عاش في عصر الملكة اليزابيث بين عامي ١٥٧٣ ـ ١٦٣١ وإن كان شعره ، لا يحمل خصائص هذه الفترة ولا يمت إليها بصلة ...

ولم أشعر بغضب المرأة لبنات جنسها ، وإنما بغضب فكري ضد التعميم الأحمق ... أردت أن أقول له أن بين الرجال من ليس وفياً أيضاً ، كما بين النساء ، لكنني سمعت صوتي يقول : لماذا جئت أيها الوقح ما دمت تكره النساء ؟ .. (لقد غلبني ضعفي الأرضي اللعين وغضبت !)

ـ جئت أطلب منك أن تتركينا نموت بسلام .. لقد أثرت الخلافات في كهوف الأدباء زجاجية الجدران .. بايرون أمضى أسبوعه الماضي يغني :

« عندما افترقنا ،

في صمت وسكون ...

بقلبين نصف محطمين :

لنفترق دهوراً ...

شحب خدك وبرد ...

وبردت قبلتك أكثر » ..

وتشوسر أمضى أوقاته كلها في صبغ شعره المستعار ، وتلميعه ، وكي أكمام قميصه المنشاة ، التي كنت سترينها لو لم يسبقه بايرون إليك وأسبقه أنا ! ! ...

— لماذا جئت إن كنت تكره المرأة ؟

— جئت لأقول لك انك باردة وعديمة الاحساس ..

— قد يكون هذا حقيقياً ولكنه لا يبرر حضورك . ثم إن (البلادة) ضرورة لكل من يعيش في (الوسط الأدبي) هذه الأيام ....

— وانك سليطة اللسان ..

— هذه أفضل تزكية لي عند مكتب الصحيفة التي أعمل بها !

— وانك سببت مشاكل لا حصر لها في (اليوتوبيا) زجاجية الجدران ..

— أنتم الذين تتنازعون وتتنافسون على الحضور إلي .. ومع ذلك يتبارى كل منكم في شتمي أمام الآخر وادعاء عدم اهتمامه بي .. هكذا أنتم .. أبداً أيها الشعراء والأدباء .. وما أشبه الليلة بالبارحة ! ..

— ولكنني كما تعلمين أكره جنسكم وجئت فقط ..

وقاطعته صارخة : أنت تكره المرأة ؟ ألم تقل :

« حرريني .. فكي أو حطمي قيودي ...

شديني إليك .. اسجنيني ..

فلن أكون حراً أبداً

إلا إذا استعبدتني ! !

لا .. ولا فاضلاً

إلا إذا اغتصبتني ! ! »

وانفجر ضاحكاً فجأة وقال ساخراً :

— هذه الأبيات ليست غزلاً قيل في حسناء كما خيل إليك وللكثيرين ..

وإنما هي قصيدة من شعري الصوفي .. وأنا في هذه الأبيات أستعطف « الثالوث المقدس » كي يحررني من قيود الحياة ويضمني إليه لأن حريتي المطلقة تكمن في عبوديتي للخالق .. هذا شعر صوفي أيتها الحمقاء ! ...

وأدركت أنني أخطأت حقاً .. بينما تابع حديثه :

— إنك لم تسأليني إلا عن الحب .. لم يخطر لك الاستفهام عن أسلوبي وخصائصي الشعرية .. كم أنت محدودة التفكير .. إنك كبنات جنسك جميعاً .. لاهم لكن في الحياة إلا الحب ! ..

وخيل إلي أنني أمام ناقد شرس القسوة ، يتغذى ظلمه لي بسعة علمه وذكائه ..

وسألته بصوت متقطع كتمتمات تلميذة كسول تتلو جدول الضرب :

— حدثني عن مدرستك الشعرية وخصائصها ...

— أنا ثائر .. ثائر على المدرسة الشعرية الواهية ، التي سادت في عصر الملكة اليزابيث . ثائر على صنعتهم اللغوية الفارغة ، وحذلقتهم الجوفاء الرنانة ، ونعومتهم اللزجة في الأفكار والتعبير ...

— وشعرك نسيج رائع من الذكاء والتركيز ..

— لم أستعمل العبارات المتعارف على أنها شاعرية .. لا ، ولا الخواطر والموضوعات التقليدية .. بعثري كلماتي تجديها عادية وعارية .. الشعر ينبع من الفكر لا من اللفظة .

— أظنك كتبت في البداية شعراً غنائياً غزلياً (ليريك) ، ثم انطلقت في أجواء « ما وراء الطبيعة » وأجواء الدين .. والوعظ الأصيل إنسانياً ...

— هذا صحيح بطريقة ما ...

— ولهذا السبب سميت مدرستك (ميتافيزيكل سكول) أي مدرسة (ما وراء الطبيعة) .

— تسميات النقاد ليست من شأني . لكنني أقر بأننا كنا ثورة على شعر العصور الوسطى ...

أجل ! إننا نتميز بغرابة أفكارنا ووسائل تعبيرنا عنها .. الأمر الذي لم يكن موجوداً في الشعر السطحي المترف لعصر الملكة إليزابيث المترف .. شعرهم يفتقر إلى الصلابة والمتانة والصدق ، وكبرياء الرصانة ، والاتزان ... والتقشف البديعي ، والثراء الفكري والروحي .

ـ وأين تكمن الشاعرية في مدرستك الخاصة ؟

ـ إنها لا تكمن في شكل الكلمة وإنما في مضمونها .. في الرعشة التي يبعثها المعنى .. ليست ألوان الحرف المبهرج هي التي تهزك عندنا وإنما هي ظلال الحرف .. بعثري كلماتنا تجديها عادية عارية .. العبرة في الروح التي ترصفها والأجواء التي توحي بها ؛ شعر جديد لرؤيا جديدة .. هذا هو شعري .

ـ هذا مفهوم حديث جداً للشعر وأجده بوضوح عند الشاعر الأميركي والت ويتمان .. لقد سبقتم عصركم بعدة قرون ...

ـ وهذا سبب عدم إعجاب الجماهير بنا في عصرنا ... ولكن النقاد خلدونا بعد موتنـــا .

ـ حديثك طلي ... أشعر بأنني أميل إلى سماعك .

ـ هكذا المرأة دائماً .. تعجب بالرجل الذي لا يعيرها أدنى اهتمام ...

قال هذه العبارة بينما انطلقت نظراته تعبث بملامح وجهي وتتحسسها ـ باهتمام ـ واستدركت غاضبة :

ـ لست معجبة بك كرجل ـ أعني كشبح ـ وإنما كشاعر ..

وتجاهل ثورتي ، وتابع بهدوء قائلاً : في المرة القادمة سأرسل اليك بعض مبدعي مدرستي أمثال « هيريك » و « هربرت » .. و ...

ـ إذا لم تحصل مبارزة ويشرفني بالحضور سواهما .. من يدري .. قد يحضر شبح من النوع الذي يتلهف على أن يبثني ـ لواعج ـ كرهه مثلك .. لم أعد أصدق وعودكم أيها الأدباء .. الأشباح ..

وقبل أن يجيب .. هوى شهاب في فضاء الليل ، وابتلعت الظلمة تأوهاته ورماده ... ومضى شبح ضيفي معه في صمت وسكون ...

ومضيت إلى فراشي في صمت وسكون ..

دمشق ١٩٦١/١/٢٣

شاعر يزور مع الليل (٤)
« بوب »* بين اللاأخلاقية .. والأخلاقية

لم ترقص الستائر بهلع .. لم يرتعد اللهيب في الموقد .. لم يهو الشهاب في الظلمة باستسلام متعب .. لم يصدق وعد الأشباح هذه المرة !

بدأت ذرات الفجر تنفض عن نفسها الغبار الرمادي ، وتتوهج فوق منضدتي بتكاسل يثير النعاس .. لم يبق أمامي إلا أن أعود إلى الكتاب الأصفر السميك ..

وضعته أمامي على المنضدة ، وأخذت أقلب صفحاته ، ورائحة بخور قديم تفوح من الحروف ، وتغمرني بنشوة المعرفة ..

توقفت نظراتي عند صفحة توجها اسم « الكسندر بوب » الناقد والشاعر الكبير ، الذي تقاسم مع درايدن و « جونسون » مسؤولية النقد وتوجيه الأدب في القرن الثامن عشر .. كنت قد وجدت أن أجمل أشعار بوب ، هي التي ضمنها نقده الاجتماعي الساخر ، ولكن هذه الأبيات لم تجلب نظري هذه المرة .. كان الذي أثار اهتمامي قصيدته المشهورة « مقالة في النقد » التي تحدد معالم شخصية « الناقد » وتوضح رسالته الحقيقية..

كتبها وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وطبعت عام ١٧١١ ، وابتغى منها أن يطبق على الناقد ، ما يطبق على الأديب من مقاييس كلاسيكية .. لذلك فان بوب رائد المدرسة « النيوكلاسيكية » في النقد ..

ومعظم الآراء التي تضمنتها مقالته ، هي حصيلة آراء أرسطو ولونجا مينوس وهوراس وكوينتيليان وفيدا ..

والجديد في هذه القصيدة ، أنها تشترط في الناقد الأصيل أن يكون متمتعاً بالنوعية

---

* الشاعر والناقد ألكسندر بوب (١٦٨٨ – ١٧٤٤) Alexander Pope

الأخلاقية والفطرية نفسها التي طالب بها الأقدمون الشاعر . أي أن « بوب » يشترط في الناقد ، أن يملك « الموهبة » والأصالة إلى جانب المعرفة والذكاء ، والجهد الشخصي .. وهذه « الموهبة » البدائية ليست حصيلة المران والتجربة ، وإنما هي بالمفهوم الحديث : استعداد طبيعي .. وفي هذا نجده يقول :

« كما أن الموهبة الأصيلة عند الشعراء نادرة ..

فالذوق الأصيل نادر عند النقاد ..

والناقد كالشاعر ، يستمد الإلهام من السماء ..

فالنقاد ولدوا لينقدوا ..

كما ولد الشعراء ليكتبوا » .

ولا شك أن عبارة « يستمد الإلهام من السماء » تستوقف أنظار القارىء العصري .. ولكن الدهشة تزول ، عندما نتذكر أن بوب تلميذ مخلص « للمدرسة الأفلاطونية » ، التي تؤمن بأن الشاعر يكون واقعاً تحت سيطرة أحد الآلهة كلما نطق شعراً .. (روح النظرية هي أن للشاعر موهبة إضافية وليس أياً كان) .

وأنا هنا لن أتعرض لزحمة الآراء المناهضة لهذه النظرية ، أو المؤيدة لها ، لكن بوب أراد منها مفهومها العصري دون أن ينبذ جوهرها التراثي .. أي أنه اشترط أن يتوافر في الناقد عنصر (مبهم) لا يد له في خلقه ، وإن كان قادراً على تنميته وحسن استغلاله .. هذا العنصر هو الذوق الرفيع ، وهو « شرط لازم وغير كاف » .. وإنما يجب أن يرافقه العلم .. ماذا يعني بوب بالعلم ؟! اسمعوه معي يقول أبياته المشهورة في أنصاف المتعلمين من النقاد :

« قليل من العلم هو أمر خطير ! ....

اشرب حتى الثمالة ....

أو ، لا تقترب من ينابيع المعرفة !! ...

لأن الجرعات الخفيفة منها تسكر العقل ..

والجرعات العميقة تعيد لك صوابك !.. » ...

ولكن بوب لا يقنع في أن يكون الذواقة « فأر مكتبه » كي يصبح ناقداً ، وإنما يطلب منه أن يُلم ّ إلماماً تاماً بظروف الأديب الذي ينقده :

« في دراستك لأي أديب قديم أو حديث ..

اعرف موضوعه .. وجهة نظره في كل صفحة ..

ديانته ، موطنه ، عبقريات عصره ..

وبدون هذه العناصر أمام عينيك ..

قد يحق لك أن تخمن ، لا أن تنقد ! » ....

ثم إن الناقد ، يجب أن يتمتع بما يشبه الحاسة السادسة ، أو ما أود تسميته « بالرادار الأدبي » لأن :

« الأدب كالموسيقى .. في كل منهما ..

جمال لا يحتويه اسم .....

ولا ترشد إليه قاعدة ....

ولا يمكن أن تلتقطه ، سوى أذن أصيلة ....

والناقد الأصيل إلى جانب هذا كله ،

سعيد بأنه يعلم ، وليس فخوراً بمعرفته ..

مثقف بالرغم من تواضعه .

ومتواضع بالرغم من طيب منبته ..

في جرأته اعتدال ، وفي قسوته إنسانية ..

يوضح لصديقه أخطاءه ببساطة ...

ويمدح عدوه بكل سرور » ...

ومن المزالق الخطرة في النقد ، أن يضيع الناقد بين الشعر والأدب والنقد ، وهو يقسو على أولئك الضائعين بقوله :

« هنالك بعض الذين ينقدون بأسوأ مما يكتبون ! ...

بدأوا كأذكياء ، وقبلناهم كشعراء ...

ثم استحالوا الى نقاد ! ..

وأثبتوا أخيراً بوضوح ...

أنهم ليسوا سوى حمقى ! » ...

وبوب أدرك خطر النقد السخيف حتى إذا كان موجها ضد مقال سخيف :

« قد يخطىء عشرة نقاد في نقدهم لشخص مخطىء ! ..

وبعد أن كان أمامنا سخيف واحد ،

نجد عشرة آخرين الى جانبه ! ! ... »

ولكن ، ما هي رسالة الناقد الخطيرة التي تتطلب هذه الامكانيات كلها ؟ . ليست مهمة الناقد تحطيم الادباء كما يعتقد بعض النقاد وإنما يجب أن يكون الناقد :

« المروحة الكريمة التي ،

تزيد نار الشاعر اضطراما ...

وتزيح عن جمراته الحمر ،

رماد التعثر وغباره ...

وهو الذي يُعلّم الناس

أن يدعموا إعجابهم بالعقل والمنطق ! .. »

هذه هي صفات الناقد الذي نستطيع أن نلقي بانتاج الأدباء بين يديه ، بكل اطمئنان ولكن .. لمن نقدم مثل هذا الناقد المثالي ؟ لأي نوع من الأدباء ؟ .. أين هو الأديب الذي يستحق مثل هذا الناقد ؟ ...

أنا لا أقصد هنا التعرض لسلوكية الأدباء الذين يصرون على أن شخصيتهم أمر منفصل تمام الانفصال عن أدبهم ... أنا لا أقصد أي شيء من وراء تساؤلي ...

ولكن يدي تأبيان إلا الاستمرار في تقليب صفحات الكتاب الاصفر ، وعيني

قد استقرتا بإصرار على اسم « راسكين » ، وعلى بحثه الشيق حول « العلاقة بين الفنان والأخلاق » بينما يدور تساؤل في خاطري بإلحاح متعب : « من هو الأديب الذي يستحق مثل هذا الناقد المثالي ؟ » ... ومن هو الفنان الإنسان ، الفنان الحقيقي ؟ — ان كان هنالك ضرورة لشيء كهذا ! ! ... — .

إن لدى راسكين جواباً مثيراً .. إنه يرى أن أي صانع يدوي عادي ، يحتاج إلى مقدرة عقلية معينة ، كي يتحكم في عضلاته بدقة ومهارة أثناء العمل ... فأية مقدرة عقلية وخلقية يجب أن تتوافر في صانع يبدع فناً يخلد على مر الأجيال ؟ ...

إن إبداع أي أثر فني يحتاج إلى توازن وانسجام بين جميع قوى المبدع الحيوية .. وقدرة مدهشة على التحكم في مرونة تفكيره ، إلى جانب صلابة عزمه ... فضلاً عن نشوة البذل المطهرة التي ترافق كل عملية خلق ، والتي تشبه النشوة التي يتحسسها النسر حين يحرك جناحه القوي خفقة إثر خفقة ... نشوة تغسل أدران النفس ، وتجعل الفنان في حالة عجيبة من السمو الخلقي والروحي ... — على حد تعبير راسكين الذي يتابع : —

بعد هذا كله ، هل يعقل أن يكون مثل هذا الرجل الذي خاض تجربة كهذه ، رجلا (سيئاً) أو أن يحمل قلبه الكبير حسداً نهاشاً ، أو نقمة سوداء الحسرة ، أو حقداً وضيعاً ؟ ...

وهكذا يرى راسكين أن طبيعة العمل الفني الرفيع ، تتطلب من منتجه الاعتياد على مرونة ذهنية معينة ، وتحكماً أخلاقياً في الحواس والإرادة ... مما يودي به دونما مجهود الى كمال (أخلاقي) نبيل ...

وأول ما يخطر بالبال بعد قراءة هذا الرأي هو مبالغته ! . وأكثر الذين ابدعوا ، أمثال بايرون وفان كوخ وادجار آلن بو واوسكار وايلد لم يكونوا أخلاقيين بالمعنى التقليدي العام للكلمة ولكنهم بلا ريب فنانون عظماء ... ولم تفت هذه الناحية راسكين ولكنه وجد لها تعليلاً ، وظل مصراً على رأيه ، فذهب الى أن عيوب شخصية الفنان لا بد وأن تظهر واضحة في آثاره مهما جل قدرها ... وان أولئك لو كانوا (أخلاقيين) لأبدعوا بشكل أفضل (يخيل إلي ان ذلك ليس صحيحاً بالضرورة وان العكس يمكن أن يكون صحيحاً ولكن ليس بالضرورة أيضاً) .

لا أدري لماذا جرني التحدث عن شخصية الناقد المثالي ، الى بحث راسكين حول السلوكية الخلقية المعينة ، التي يفرضها مجرد كون الإنسان فناناً مبدعاً ... إنها مجرد صدفة لا أكثر ولا أقل ! ... وبعد ... أعرف انني بما ذكرت لم أكسب ودّ ناقد . ولا أديب ... ولكنها صيحة راسكين ، ومن حقه أن يقول رأيه وان أنقل صيحته (وما أكثر المتاعب التي تجلبها صيحات الحق !) ...

أرجو أن تحضر الأشباح في الأسبوع المقبل وتريحني من « صيحات الحق » ومتاعبها .

دمشق ١٩٦١/١/٢٩

شاعر يزور مع الليل (٥)
« جوته »* : الخطيئة هي الرفض المطلق

ألا فلتنفجر وحشتي حجب الضباب ، ولتمزق وحدتي ستائر الأبدية ، ولتتدفق الأرواح في غرفتي الكئيبة ...

هكذا كنت أتمتم ... وتغوص همساتي في السجادة الملونة ، وتمتزج بحنينها إلى قدمي شبحٍ ينزلقان فوقها برفقٍ وَجِلٍ .

رأيته فجأة أمامي ... خبرة دافئة تلهث في حنايا وجهه المرتعدة ... جليل المنظر ، عميق النظرات ... ازدادت عيناه ظلمة لما سألته : من أنت أيها الضائع ؟

— ما أنا بضائع ! أنا فاوست ... أنا حكيم ڤيمار ... أنا جوته ...

— أنت ذلك الرجل المثقل بالابداع والحب ... والأحزان ؟

— لقد فاز كتابي « آلام ڤرتر » بالشهرة والخلود . وكان له أبلغ الأثر في نفوس شبيبة ذلك العصر ، حتى أن نسبة الانتحار ارتفعت فعلاً لديهم بعد قراءته !! ... أكرمني « دوق ويمر » وظللت أعمل معه في منصب محترم بقية حياتي « الارضية » ... ولقبت بحكيم ويمر ...

— متى توفيت ؟

— تقصدين متى سئمتكم ورحلت ؟ كان ذلك عام ١٨٣٢ في حسابكم الأرضي .

— قلت لي انك فاوست . هل تعني بذلك الرجل الذي باع نفسه للشيطان بموجب صك وقعه لابليس بدمه ؟ . تلك الحكاية التي أبدعت في كتابتها ؟ ...

---

* الشاعر جوهان جوته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) Johann Goethe .

ـ أجل ! ... فاوست أسطوره ألمانية ، استوحى منها أكثر من « زميل » تمثيليات وقصصاً خلدت بعده ... لقد كتب عن فاوست الشاعر مارلو ... ولكنه جعله يفقد نفسه نهائياً ، ويفشل في الحصول على الغفران ، أما أنا فقد جعلت فاوست يجد نفسه من خلال خطيئته ، ويهتدي إلى طريقه بعد أن طال تخبطه في الدروب الوعرة ...

ـ وما هي القصة ، قصة فاوست ؟ ...

ـ عالم مثالي مؤمن بالله وضليع في جميع الفنون والمعارف ... يتراهن الشيطان مع الرب على أن باستطاعته أن ينتزع هذه الروح الطيبة منه ... ويرضى الرب بالرهان ويعطي مفستوفليس « ابليس » الإذن باغرائه .

ويتسرب الشيطان إلى أعماق فاوست المنيعة خلال نقطة ضعفه ... إلا وهي ولعه المجنون بالمعرفة الكاملة والقوة ... ويقع فاوست في الشرك ، ـ كما وقع بروميثيوس من قبله ـ ، ويوقع صكاً مع الشيطان ممهوراً بدمه يقتضي بأن يخدم الشيطان فاوست طوال حياته على الأرض ، شريطة أن تصبح روحه ملكاً له بعد مماته ... ويهوى فاوست ، الذي بلغ العقد الخامس من عمره فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ... فيأخذه الشيطان الى كهف الساحرة ، حيث يعيد إليه شبابه .. « شبابه الجسدي » فقط ، لكنه يظل في « كهولته » العقلية المعذبة بنزوات جسد فتي ... ويمهد الشيطان السبيل لفاوست كي يلتقي بمرغريت التي تحمل منه . ويظل نضج فاوست يعذبه ، وضميره الموجع يرهقه ... ويتخلى فاوست عنها بعد أن يقتل أخاها ، ويتسبب في موت أمها ...

ويحاول إبليس تسليته فيركب « مكنسة » الساحرات ، ويمتطي فاوست عنزة : تطيران بهما إلى قمة جبال الهارتز لحضور ليلة السحرة الرائعة ... ويراقص فاوست ساحرة فاتنة الجمال ويكاد ينسى حزنه الداخلي ... وفجأة تقفز من فم الساحرة فأرة هي رمز الخطيئة فاوست الذي يفشل في النسيان ... ويكره الشيطان وقوته ، ويكره كل شيء حتى نفسه ، ويعود لإنقاذ مرغريت (البراءة) بعد فوات الاوان ... يجدها سجينة ومجنونة بعد أن قتلت ابنها للتخلص من عارها ... ترفض الهرب معه ... ويخلفها تنتحب في عتمة السجن ويخرج هارباً ... وينتهي هنا الجزء الأول من فاوست ، وفي الجزء الثاني منه تجدين انه استطاع أن يجد السلام بعد خطيئته ، وذلك بتسخير معرفته في خدمة الناس ، وفي محاولاته التي لم تتوقف لحظة واحدة من أجل انقاذ نفسه .

ـ ما وجه الشبه بينك وبين فاوست ؟

— كلانا وجد نفسه ساعة أحس أنه فقدها . وكلانا رفض النظم الاجتماعية رفضاً مطلقاً ثم قاده الرفض إلى (الرضى) الحزين ، بعد تجربة مريرة .

أنا هو فاوست بنهمي المجنون للمعرفة ، وجوعي للحقيقة الخالدة ولليقين ... الجوع الذي ما روته علوم الأرض وكنوزها ، وشفاه النساء ، وأسرار النجوم ، وخفايا الغيب ... كنت أبحث عما وراء هذا كله ... عن نفسي ...

— وماذا وجدت ؟

— وجدت ان من حق الإنسان أن يخطىء بينما هو يكافح باحثا عن الحقيقة . ليست الفضيلة في تجنب الرذيلة بدافع الخوف ... الفضيلة ليست موقفاً سلبياً جامداً متحجرا من النزوات ، وإنما هي القدرة على الانحياز الايجابي نحو (الفضيلة) بعد تجربة تقود إلى القناعة والرضى ... وجدت أن الإنسان لا يضيع ما دام يكافح ... هنالك أمل في أن يهتدي ما دام يبحث .

— ولكنك كنت ملحداً ... لقد هاجمت المعابد وهجوتها .

— ما هذا بإلحاد ، إلا إذا كان الإيمان في الانقياد الأعمى ... هذا جزء من ثورتي على المؤسسات الاجتماعية الفاسدة .

— لم تكن تؤمن بالتعاليم المسيحية عن الثالوث المقدس .

— لقد اعترفت بفكرة الله وبوجوده ، ولكنني اعترضت على أن نضمن الله — الذي هو فكرة — في كلمة ... ونردد الكلمة ببلاهة وننسى مضمونها . ألا تذكرين فاوست حين قال لمرغريت :

« من يجرؤ على تحديد اسم الله ؟ ...

ومن يجرؤ مع ذلك على إنكار وجوده ؟ ...

ألم يرفع قباب السماء فوقنا ؟ ...

ألم يرم بالأرض الصلبة تحت أقدامنا ؟ ...

ألم يبعث في النجوم الخالدة ...

إشعاعات أضواء رقيقة ؟

ألا ينظر كل منا في عيني صاحبه بسلام ؟

سمّيه ما شئت ، فهو موجود ...

سمّيه الغبطة ... القلب ... الحب ... الله ...

أنا لا أملك اسماً له ...

إنه إحساس ... إنه بكامله مجرد إحساس ...

وما اسمه إلا الصوت والدخان ...

الذي يكفنُ ضياء سمائه ! » ...

— لقد أقنعتني ... ولكن . كيف تدعي الرضى بقوانين المجتمع ، مع انك عشت زمناً طويلاً مع عشيقتك ؟

— هل نسيت أنني تزوجت منها بعد « عشرة » طويلة ؟ ...

لقد علمتني تجاربي ، أن النظم الاجتماعية ضرورية ، على الرغم من فسادها ، وأن الحل يكمن في إصلاحها ، لا في إلغائها نهائياً ...

— ما رأيك بالحياة ؟

— جميلة بوداعتها العنيفة وبساطتها المرهقة ... لقد امتنع فاوست عن الانتحار عندما سمع ضحكات الناس المحتفلين بقدوم الربيع !

« همهمة الألحان ...

بطنينها ...

تبعد كأس السم عن شفتي ... » ...

— هل كنت تؤمن بالسحر ؟ إن فاوست يتضمن جميع معتقدات العصور الوسطى عن السحر والسحرة ...

— لم أنثر السحر في صفحات كتابي إيماناً مني به ، ولكنني سخرت منه كما تلحظين في تصويري لكهف الساحرة وتصرفاتها .

— وماذا عن ليلة السحرة في قمة الجبل ؟

ـ يا لعصرك المادي ... قيمة الشيء عندكم مرهونة بمدى امكان وقوعه ... ألا ترين مبلغ الجمال الذي تتضوع به أوهامي ؟ ... أتعترضين على ليلة السحرة ؟ أما أحسست بنشوة المجهول تغمرك . وأنت تبصرين فاوست جالساً فوق عنزته الغريبة ، وهي تطير به فوق القمم : بينما هو يتحاشى أن يصطدم رأسه بالنجوم ، ونظراته تهيم في الأودية الملتوية : والأنهار المتشعبة التي تغسلها غلائل قمر مسحور عجيب ... أوهام كتابي : هي من خمرة معتقدات وطني الشعبية ... إنها خمرة الأيام المعتقة المسحورة ... تسكر بلا كأس ...

ـ انك مصيب فيما ذكرت ... الاسطورة بنظري ليست سوى ينابيع الحقيقة بعد أن يخرّبها حرارة العتق ودفء الحنين الى الماضي ... الأساطير الشعبية معين ابداع لا ينضب... ولكن ... لدي سؤال أخير أطرحه . هل في حديثك عن مرغريت مدلول واقعي ؟ أعني ، هل تمثل مرغريت فضيحة في حياتك لم تمتد إليها يد النقاد والناس ولكنها مع ذلك ظلت تأكل من سكينة أعماقك حتى نفست عنها في كتابك فاوست ؟

ـ هذا سؤال صحفي أرفض الاجابة عنه ... أيتها المتعبة ... لا تكشفي عن الماضي أكفانه ... دعيه يرقد بسلام ...

وأردت أن أستزيد من خبرته المعتقة ، ولكنني رأيت الشهاب يهوي في الظلمة باستسلام يائس ، ولمحت جوته يذوب مع رماده وتأوهاته ... وعدت وحيدة ... وقد أطبقت حجب الغيب أبوابها من دوني ... آه لو ألقاه ثانية حقاً ، ولو لثانية !

دمشق ١٩٦١/٢/٥

شاعر يزور مع الليل (٦)
« ويتمان »• : أسطورة الموت كاذبة

تقدمي أيتها الروح الضالة في أوقيانوسات السماء ... اقتربي يا متعبة ، فابتهالات اللهب الحمر تناديك ... وضياع النور بين أكداس الكتب يناديك ... تقدمي أيتها الروح ... فشحوب وحدتي يناديك ... اقتربي أيتها الروح ... اقتربي.

وانسلت الروح هادئة وادعة ، وابتسامة رائعة ترقص في كل ثنية من ثنايا سحب وجهها ...

— من أنت أيتها الروح الآمنة المطمئنة ؟

— أنا (والت ويتمان) ... الشاعر الأميركي الأول الذي سكب في الشعر الأميركي خصائصه المميزة ، التي ميزته نهائياً عن الشعر الانجليزي ...

— ما بالك سعيداً كأنك لم تمت ؟

— « من قال انني انتهيت ؟ من قال ان هنالك فناء ؟ ...

لا ريب في أنني توفيت ...

عشرة آلاف مرة من قبل ...

أسمعك تهمسين بذلك أيتها السماء ...

أيتها النجوم ... ويا حشائش القبور ...

بغموض لا يفهم ...

• الشاعر والت ويتمان (١٨١٩ — ١٨٩٢) Walt Whitman .

فكيف أثبت أنا هذه الحقيقة بوضوح ؟ » ...

— هل أفهم من ذلك أنك تؤمن بتناسخ الأرواح ؟

— « ماذا تظنين أنه قد حدث للذين مضوا ،

الشبان منهم والكهول ؟ ...

وماذا تظنين أنه قد حدث للواتي مضين ...

النساء منهن والصغيرات ؟ ...

إنهم أحياء في مكان ما ... كل ذرة في الوجود تصرخ :

ذلك الذي ندعوه بالموت ،

باطل ، وغير موجود ...

واذا ما وجد ،

فإنه يقود الى حياة جديدة ... »

— ولماذا تدعو نفسك بالشاعر الأميركي الأول ؟

— لأنني جسدت في شعري الروح الاميركية للمرة الاولى ... تحدثت عن المساواة ... الديمقراطية ... الحرية ... وحطمت (تابو) الشعر الانجليزي ، ألا وهو موضوع الجنس الذي لم يجرؤ شاعر على أن يطرقه من قبل ، لأنه يتعارض مع (عمود الشعر الانجليزي التقليدي) ...

— الروح الامريكية تعني ... « المساواة ... الديمقراطية ... الحرية » ؟ هذه نظرية شعرية ... وأنا أريد أدلة ... سئمت فخركم وتبجحكم أيها الادباء ...

— الروح لا تتبجح حتى ولو كانت روح أديب ...

الروح تقرر الحقيقة فقط ... ومع ذلك اسمعي هذا المقطع من قصيدتي الشهيرة (وريقات العشب) ...

« تسعة وعشرون رجلاً استحموا عند الشاطىء ...

تسعة وعشرون عاماً من عمر امرأة كانت ترقبهم ...

تسعة وعشرون عاماً كلها وحدة ووحشة ...

إنها تملك البيت الجميل أمام الشاطىء ...

ركض التسعة والعشرون رجلاً

ضاحكين راقصين على الشاطىء

وعروق الماء تنسل فوق أجسادهم ...

وكانت هنالك يد خفية ...

تتحسس أجسادهم بحرقة

وتهبط مرتعشة حول خصرهم وسيقانهم ...

ويعوم الرجال على ظهورهم .

فتلتمع صدورهم في أشعة الشمس ...

ولكنهم لا يشعرون بالتي

تلتصق بهم بشدة ...

ولا يدرون شيئاً عن نحولها ... وتنهداتها ... »

ــ هذا لا يثبت كلامك عن أميركا ، لكنه يثبت كلامك عن شعرك (الجنسي !) ..

ــ أبداً ... إنه ناتج عن اعتقادي بأن الجسد ورغباته ، والتعبير عن هذه الرغبات أمر لا يقل قدسية عن الروح وحاجاتها والتعبير عن هذه الحاجات ...

« صافية وعذبة هي روحي ...

وصاف وعذب هو كل ما تبقى مني . .

وكل ما ليس بروحي ... » ...

ــ وما الذي جعل منك الشاعر الأميركي الأول أيضاً ؟

ــ لم يقتصر تمردي على أفكار الشعراء الانجليز ، وإنما تجاوزها الى وسيلة التعبير ذاتها ... لا أعتقد أن الوزن الذي طالما التزموه ضروري ... لقد نظمت أشعاري على طريقة (الشعر الحر) ...

ـــ وماذا يميزك أيضاً ، عن الشعراء الانجليز ، الذين كتبت بلغتهم ، وتمردت على أساليبهم ومعتقداتهم ؟

ـــ لقد عبرت عن التجارب الصوفية الروحية عن طريق الاصطلاحات المادية الجسدية ... اسمعي !

«أتذكرين كيف ارتمينا معاً على الأعشاب ...

صبيحة يوم صيفي شفاف ؟

وكيف سكن رأسك قرب رأسي ...

واستدرت نحوي ...

وكيف أزحت قميصي عن صدري ...

وغرستِ لسانك حتّى قلبي العاري ...

وظللت تبحثين حتّى بلغت لحيتّي ...

وحتّى بلغت قدمي ... أتذكرين ؟ ...

ـــ آسفة ... ولكنني لا أرى صوفية هنا ولا أشمها ...

أرى شاعراً (نمروداً) يدعي الصوفية .

ـــ حكمك مطعون به لأنك لم تقرأي ما قبل وما بعد هذا المقطع ... لقد سمعت (لا تقربوا الصلاة) وضيق الوقت يمنعني من أن أقول (وأنتم سكارى) ...

ـــ لن أصدقك إلا اذا قرأت القصيدة بكاملها ...

لم يثر التحدي ملامحه المحببة ... ابتسامته بدأت تذوي ساعة اخترقت أنظاره النافذة ... وضاعت في فضاء الليل ... حيث كان شهاب يهوي ... يحترق بصمت مفجع كخيبة عمري ... فتبتلع الظلمة رماده وتأوهاته ...

وضاع شاعري من جديد في اوقيانوسات السماء ... وظل صوته الأخير يدوي : عودي الى أعمالي الكاملة واقرئيها ... أنتم العرب تطلقون الأحكام السلفية ولا تبذلون جهداً للمعرفة الكلية ! ...

إقـــرار

محتويات هذا الكتاب نشرت في المجلات والصحف التالية وفقاً للترتيب الأبجدي :

الأسبوع العربي اللبنانية

الحوادث اللبنانية

جريدة الرأي العام الكويتية

جريدة الكفاح اللبنانية

المعرفة السورية

جريدة الوحدة السورية

الفهـــــرس

مؤلفات غادة السمان

الأعمال غير الكاملة

صدر منها :

١ ـ زمن الحب الآخر	(الطبعة الخامسة)
٢ ـ الجسد حقيبة سفر	(الطبعة الثالثة)
٣ ـ السباحة في بحيرة الشيطان	(الطبعة الرابعة)
٤ ـ ختم الذاكرة بالشمع الأحمر	(الطبعة الرابعة)
٥ ـ اعتقال لحظة هاربة	(الطبعة الرابعة)
٦ ـ مواطنة متلبسة بالقراءة	(الطبعة الثالثة)
٧ ـ الرغيف ينبض كالقلب	(الطبعة الثالثة)
٨ ـ ع غ تتفرس	(الطبعة الثالثة)
٩ ـ صفارة انذار داخل رأسي	(الطبعة الثانية)
١٠ ـ كتابات غير ملتزمة	(الطبعة الثانية)
١١ ـ الحب ، من الوريد الى الوريد	(الطبعة الثالثة)
١٢ ـ القبيلة تستجوب القتيلة	(الطبعة الأولى)
١٣ ـ البحر يحاكم سمكة	(الطبعة الأولى)
١٤ ـ تسكع داخل جرح	(الطبعة الأولى)

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان ص .ب : ١١٨٣٣١
تلفون : ٣١٤٦٥٩ / ٣٠٩٤٧٠

مؤلفات غادة السمان

عيناك قدري	(الطبعة الثامنة)	(قصص)
لا بحر في بيروت	(الطبعة الثامنة)	(قصص)
ليل الغرباء	(الطبعة السابعة)	(قصص)
رحيل المرافىء القديمة	(الطبعة السادسة)	(قصص)
حب	(الطبعة الثامنة)	
بيروت ٧٥	(الطبعة الخامسة)	(رواية)
أعلنت عليك الحب	(الطبعة الثامنة)	
كوابيس بيروت	(الطبعة السادسة)	(رواية)
غربة تحت الصفر	(الطبعة الأولى)	
الأعماق المحتلة	(الطبعة الأولى)	
ليلة المليار	(الطبعة الأولى)	
اشهد عكس الريح	(الطبعة الأولى)	(رواية)

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان ص .ب : ١١٨٣٢١
تلفون : ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠



هذا الكتاب هو الكتاب الرابع في سلسلة «الأعمال غير الكاملة» لـ«غادة السمان»، وتضم السلسلة كتابات لم يسبق نشرها في كتبها.

و«ختم الذاكرة بالشمع الأحمر» كتاب «شامي» المذاق. أكثر ما يحتويه كُتبَ في «الشام»، أو لها، أو عنها، أو انطلاقاً من مناخها النفسي، أو تحت جاذبية كوكبها.

ويضم الكتاب المواضيع التالية: لكَ حبي، ولي ذاكرتي – للقلب صرخة بالأبجدية، وللذاكرة شمع أحمر – تأملات شبه نرجسية حول كتبي – لحظات حارة – مسافرا – تموت إحدى ميتاتنا – كتابات طفولية في زمن ذاكرة الياسمين بدمشق – شاعر يزود مع الليل.

الناشرة

منشورات غادة السمان